

كم عمر



هيكل وأزمة العقل العربي

د. فؤاد زكريا



اهداءات ٢٠٠٢

أ/ثروت اباطة

القاهرة



د. فؤاد زكريا

الغلاف للفنان : محمد بغدادى

الطبعة الثانية : دار القاهرة للنشر والتوزيع

١٩٨٤

مقدمة

قبل أن يظهر كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل المشهور « خريف الغضب » فى الأسواق ، نشر على هيئة سلسلة من المقالات فى صحيفة « الوطن » الكويتية . وطوال الوقت الذى كانت تنشر فيه هذه المقالات ، كانت سلسلة أخرى من الأفكار تتفَاعَل فى ذهنى وتتلور يوما بعد يوم . كان كتاب هيكل ، بغير شك ، هو السبب المباشر فى إثارة هذه الأفكار ، ومع ذلك فقد كانت أصولها أبعد من ذلك وأعَمَق بكثير ، اذ كانت فى نهاية المطاف تأملات فى تلك الأزمة العقلية الشاملة التى شوَهِت تفكيرنا ، حكاما ومحكومين ، فى النصف الثانى من القرن العشرين . وحين اطلعت على ردود الفعل التى أثارها كتاب هيكل ، أو ما نشر منه ، فى الأوساط الرسمية والإعلامية والثقافية المصرية ، والطريقة التى استجاب بها الناس له ، ما بين موافق ومخالف ، ازدادت الأمور فى ذهنى وضوحا ، وتبين لى أن المناخ السائد ، الذى تولدت عنه هذه الأزمة العقلية ، يلف الجميع ، من مؤيدين ومعارضين ، مهما بدا من اختلاف ردود أفعالهم فى الظاهر . وكانت المهمة التى أخذتها على عاتقى هى أن أحدد أبعاد هذه الأزمة ، وأثبت أن المشكلة ليست مشكلة هيكل وحده ، أو مشكلة التضاد بين هيكل وتلك القوى التى وقفت تحتج وتعارض عليه ، وإنما هى أوسع من ذلك وأخطر . فقد تشوَّهت أشياء كثيرة فى عقولنا بفعل فترة القمع الطويلة التى لم تسمح لفكرنا بأن ينمو ويتطور بحرية .

واذا كان هذا التشويه قد ظهر بوضوح كامل في معركة « خريف الغضب » ، بين أنصار هيكل وخصومه ، فإن هذه المعركة لم تكن في الواقع الا مظهرا واحدا لداء أصبح متأصلا في عقولنا ، ولطريفة في التفكير فرضت نفسها على مختلف أطراف الصراع السياسي والاجتماعي الراهن .

في ضوء هذه الفكرة المحورية سجلت آرائي في هذا الموضوع في عشر مقالات كتبناها في عشرة أيام ، وان كان مضمونها حصيلة تفكير طويل ، وظهرت في صحيفتي « الوطن » الكويتية و « الرأي » الأردنية في وقت واحد ، ونشرت خلال شهرى يونيو ويوليو ١٩٨٣ . وكانت ردود الفعل على هذه المقالات دليلا واضحا على صحة تشخيصي للأزمة التي انتابت العقل العربى نتيجة لعهود القمع الطويلة .

منذ اللحظة الأولى اتخذت صحيفة « الوطن » الكويتية موقفا مناوئا لى ومجاملا لصاحب « خريف الغضب » . وكان جزء من هذا الموقف راجعا الى النفوذ الضخم الذى يمارسه صاحب ذلك الكتاب على قطاعات هامة من الصحافة العربية ، وجزء آخر راجعا الى احساس الكثيرين ، من المسئولين عن النشر فى تلك الصحف ، بأن الأفكار التى أحللها وأنقدها تزعزع كثيرا من المعانى والقيم الراسخة فى نفوسهم . وقد ظهر ذلك بوضوح صارخ فيما بعد ، حين قامت هذه الصحيفة بحذف الجزء الأساسى من المقال التاسع ، الذى يتناول علاقة هيكل الخاصة بأمريكا ، وعنوانه : عمنا سام . وكان المضحك المبكى فى عملية الحذف هذه هو أن الجزء المحذوف كان فى معظمه اقتباسا طويلا من كتاب سابق لـ هيكل نفسه ، وهو اقتباس يستطيع القارئ أن يستنتج منه بسهولة أن أمريكا تتوقع من هذا الصحفي الكبير أن يلبي لها طلبات غير عادية لا هدف لها سوى تحقيق المصالح الأمريكية الخاصة . ولم أكن فى هذا الجزء بالذات الا ناقلا لكلام هيكل ذاته ، مع بعض التعليقات البسيطة . ومع ذلك فان الصحيفة الناشرة كانت تخشى على هيكل من هيكل نفسه ، فأدى بها حرصها على ارضائه الى الامتناع عن نشر كلماته ذاتها !

على أن ردود فعل الجمهور على ما نشرت كانت تستحق التأمل .
فقد وجد ما كتبته صدى طيبا لدى فئتين : فئة الشباب من جهة ،
وفئة الكبار الذين كان وعيهم السياسى والاجتماعى قد بدأ يتبلور
قبل ثورة ١٩٥٢ من جهة أخرى . كان الشباب متحمسين لما كتبت ،
اذ كانوا يرون فيه طابعا غير مألوف ، يستجيب لرغبتهم فى نقد
الأوضاع الفاسدة من الجذور . وكان النقد الحاد الذى وجهته الى
أسلوب التفكير السائد فى عهد كامل ، يتمشى مع ما يلمسونه حولهم
كل يوم من مظاهر الانهيار الناجمة عن أخطاء ذلك العهد ، ويتجاوب
مع طموحهم الى تشييد بناء جديد مختلف بصورة جذرية عن الأوضاع
القائمة والمتوارثة . أما الكبار فكانوا سعداء بما كتبت لأنه يمثل
خروجا عن الأطر الضيقة التى ظل الفكر السياسى يدور فيها ، حتى
فى كثير من أوساط المعارضة ، طوال العقود الثلاثة الأخيرة .

أما الفئة التى وقفت موقف المعارضة مما كتبت ، فكانت تنتمى
الى الجيل الأوسط ، أعنى ما يطلق عليه جيل الثورة . ولست أعنى
بذلك أن جميع أفراد هذه الفئة قد اتخذوا من كتابتى موقفا سلبيا ،
اذ أن الكثيرين منهم أبدوا تجمسا واضحا ، ولكن ما أعنيه هو أن
الجزء الأكبر من المعارضين كانوا ينتمون الى هذه الفئة .

كان عدد غير قليل من هؤلاء المعارضين من ذوى الارتباطات
السابقة بثورة ٢٣ يوليو ، وكان همهم الأكبر هو الدفاع عن هذه
الارتباطات . وتلك فى الواقع ظاهرة مؤسفة فى حياتنا السياسية
المعاصرة : فيكفى أن يكون المرء قد احتل يوما ما موقعا فى الاتحاد
الاشتراكى ، أو منظمة الشباب ، أو التنظيم الطليعى ، حتى يهب
لمهاجمة كل من يتصدى بالنقد لممارسات ثورة يوليو ، وكان هذا
الناقد يوجه اليه هجوما شخصيا يتعين عليه أن يصده بهجوم مضاد ،
يدافع به عن ارتباطه السابق ويبرره ، فى ثنايا دفاعه عن النظام كله
وتبريره . والأمر الذى فات هؤلاء هو أن المنظور الذى كتبت منه
لا علاقة له بالأشخاص وانتماءاتهم ، وإنما هو منظور أوسع من ذلك
بكثير ، يرصد التيارات والاتجاهات ويوضح جوانب القصور فيها ،

مستهدفا غاية اسمى بكثير من الانتقام من عهد معين أو تصفية الحساب مع المتعاونين معه . والأهم من ذلك أن التدهور الذى أصاب كافة جوانب حياتنا كان كفيلا بأن يجعل أصحاب الارتباطات السابقة ينسون أشخاصهم ويركزون تفكيرهم فى أوضاعنا المتردية ، وفى أفضل السبل لانقاذ وطننا من الهاوية التى ينزلق اليها بسرعة رهيبة . ولكن يبدو أن الحرص على تبرة الذات وتبرير تاريخها السابق أهم لدى الكثيرين من مد يد المعونة الى الوطن الفارق .

وهكذا اعتقد الناصريون أننى لم أقصد ، من كل ما كتبت ، سوى عبد الناصر ، وأغمضوا عيونهم عن جميع الشواهد القاطعة التى تدل على أننى تصديت لأسلوب فى الحكم ، لا لأشخاص ، ولم أتعرض لعبد الناصر أو للسادات أو لهيكل الا بقدر ما كانوا يجسدون هذا الأسلوب فى فكرهم أو ممارساتهم . واعتقد بعض اليساريين أن اقتقادی لهيكل ، فى الوقت الذى كان يخوض فيه معركة ضد المؤسسة الساداتية ، كان نوعا من السذاجة السياسية التى تؤدى موضوعيا الى خدمة المعسكر الساداتى . ولو كان هؤلاء قد أمعنوا التفكير فيما كتبت لتبين لهم أن النقد الذى وجهته الى أسس النظام الساداتى كان أكثر فعالية بكثير من انتقادات هيكل . ذلك لأن صورة السادات عند هيكل تظل دائما مهتزة غير محددة المعالم : فهو يصوره مغامرا غير وطنى فى شبابه قبل الثورة ، ثم واحدا من أقرب المقربين الى زعيم وطنى كبير ، ثم رئيسا للبلاد أعطاه هيكل ، خلال سنواته الأولى والحاسمة ، كل تأييده ، آملا أن « يمنحه فرصة » يمحو فيها تاريخه القديم المشين ، ثم قائدا لا يعرف كيف يدير ، سياسيا ، معركته العسكرية الكبرى ، ثم زعيما متهاونا ومستسلما أمام أعداء الوطن . . . انها صورة خالية من التماسك والاتساق ، وما كان من الممكن الا أن تكون على هذا النحو ، اذ أن مواقف هيكل نفسه من السادات كانت أبعد ما تكون عن الاتساق ، وكانت تتراوح بين التأييد المطلق والعداء المطلق ، مع انكار العداء السابق وقت التأييد ، وانكار التأييد السابق وقت العداء . وهكذا كان الاهتزاز فى صورة

السادات ، كما رسمها هيكل ، تعبيرا عن التذبذب الحاد فى مواقف هيكل نفسه . فهل هذا الموقف الأعرج هو الذى يمكن الاعتماد عليه فى نقد الظاهرة الساداتية ؟ ألن يكون النقد المتسق ، المتماسك ، أليصادر بدوافع موضوعية لا تشوهها ارتباطات أو تبريرات ، هو الأقدر على كشف السمات الحقيقية لهذه الظاهرة ؟

ولقد كان الوجه الآخر لهذه الرؤية الضيقة ، هو تصدى بعض الناصريين للدفاع عن هيكل بوصفه رمزا للناصرية ، ناسين تماما تلك المعركة التى خاضها بكل ضراوة ، جنبا الى جنب مع السادات ، فى عام ١٩٧١ ، ضد الكتلة الرئيسية من الناصريين الذين أطلق عليهم اسم « مراكز القوى » ، وتلك الخلافات الحادة التى نشبت بينه وبين أشد العناصر الناصرية اخلاصا لمبادئها ، وذلك الدور الحاسم الذى لعبه فى سنوات السادات الاولى من أجل تهيئة عقول الناس للتحول الحاسم الذى كان يخطط له بذلك من أجل هدم دعائم أساسية للناصرية .

أعود فأقول ان ردود الأفعال هذه كانت دليلا آخر على صحة التشخيص الذى قمت به فى هذا الكتاب للتشويه الذى لحق عقولنا بعد سنوات طويلة من الممارسات الملتوية المقيدة بألف قيد . فقد ظهر لى بوضوح كامل أن عددا لا يستهان به من مثقفينا ما زالوا يصرون على تصنيف المفكرين السياسيين فى اطار تلك الثنائية المحدودة : الناصرية أو الساداتية . فانت فى نظرهم لا بد أن تكون هذا أو ذاك . واذا انتقدت أحدهما فلا بد - فى رأيهم - أن يكون هذا النقد لحساب الآخر . أما أن يتخذ المفكر لنفسه موقعا خارج نطاق هذه الثنائية ، ويقف من الطرفين معا موقفا ناقدا متحررا ، كما حاولت أن أفعل فى هذا الكتاب ، فهذا ما يعجزون عن تصوره أو استيعابه .

والحق أن هذا الكتاب سيكون قد حقق الهدف الذى يرمى اليه كاتبه لو استطاع أن يقنع القارىء بأن مصر أوسع وأرحب من أن

تختزل الى هذه الثنائية الضيقة المحصورة في اطار ثورة يوليو ،
وبأن العهدين الناصري والساداتي ، وان اختلفا تماما في مضمونهما
وأهدافهما ، قد أخضعا مضر لأسلوب فردي في الحكم كان هو المسئول
عن القدر الأكبر من هذا التدهور الذي نلمسه في كل جوانب
حياتنا ، وهذا الانهيار القاتل في معنويات الانسان . ولو لم يدرك
الناصرى عن وعى طبيعة المنظور الاستقلالى الذى كتبت به هذه
الصفحات ، لأفلت منه الخيط الأساسى الجامع بينها ، وعجز عن فهم
الهدف الحقيقى الذى يرمى اليه كاتبها .

فؤاد زكريا

ابريل ١٩٨٤

الفصل الأول

انتقام الأرشيف

لن أكون قد أضفت جديدا لو قلت ان هيكلم ، فى « خريف الغضب » قد قال الكثير . ولكن الجديد الذى أود أن أضيفه هو ان ما لم يقله هيكلم أهم وأخطر بكثير مما قاله .

لقد أثارت المعلومات الهائلة التى فجرها هيكلم فى كتابه ، والتى لم يكن أحد غيره يستطيع أن يصل إليها أو يعبر عنها بمثل هذه الدقة ، عاصفة عاتية فى مصر ، سرعان ما امتدت الى سائر البلاد العربية . كان هيكلم هنا يكتب ، لأول مرة ، « بصراحة » ، ولم يكن من العسير على القارئ الواعى أن يدرك أنه تخلى ، فى « خريف الغضب » ، عن الأسلوب الدبلوماسى الحذر ، وعن طرق التعبير غير المباشر التى كانت تميز « صراحاته » فى معظم الأحيان . كان هيكلم هنا ، لأول مرة ، فى مواجهة حقيقية أمام حاكم كان نظامه لا يزال ، بعد موته ، يحتفظ بالكثير من أعراض الحياة ، بل كانت روحه لا تزال - فى رأى البعض - ترفرف بقوة على معظم جوانب الحياة الرسمية فى مصر . وجاءت المواجهة قاسية ، مريرة ، نافذة بضرباتنا الى الصميم .

وحين بدأت المعركة الحامية حول الكتاب ، كانت تحمل سمة

فريدة يقف أمامها الفكر الواعى حائرا . فقد كانت ، بالنسبة الى الغالبية الساحقة من المصريين ، معركة ضد شبح مجهول . كانت الردود تتوالى ، بعضها مؤيد ومعظمها معارض ، دون أن يكون أحد قد عرف عن موضوع المعركة وأسبابها الا معلومات أولية نقلتها حلقات قليلة جدا من الكتاب ، وتسربت الى الجمهور قبل أن يصدر قرار المنع . ومع ذلك فقد استمرت المعركة بعد المنع ، وضد هذا الشبح المجهول ، بكل حدتها وعنفوانها . وكانت تلك المعركة ذاتها من أبرز أعراض ذلك المرض الذى عانى منه المصريون مرارا طوال الأعوام الثلاثين الأخيرة : أعنى أن يروا أجهزة اعلامهم تمتشق سيوفها بكل الحماسة والفضب ضد عدو لم تتج لهم فرصة معرفته . فى هذه المعركة كان الاستقطاب واضحا : فقد أعطاها أنصار هيكل وخصومه طابع الصراع بين عهد السادات وعهد عبد الناصر . كان المصفقون المتحمسون لما كتبه هيكل هم أنصار عبد الناصر ، بحيث لم يقتصر اعجابهم بالكتاب على ما حواه من فضائح تمس العهد الساداتى ، بل كان من أهم أسباب ترحيبهم به ما احتواه من دفاع ، صريح تارة وضمنى تارة أخرى ، عن العهد الناصرى . ومن جهة أخرى فقد كان الناقدون الناقمون على الكتاب هم ، بلا استثناء تقريبا ، من مؤيدى سياسة السادات ، فلم يقتصروا فى هجومهم على تبرير تلك السياسة ، وانما اغتنموا الفرصة لكى يجرؤا مقارناتهم المألوفة بين العهدين ، ويشبتوا (على طريقتهم الخاصة) الى أى حد تمكن العهد اللاحق من اصلاح ما أفسده العهد السابق . وهكذا كان هيكل ، فى نظر البعض ، شاهد صدق فضح عهدا فاسدا بأدلة لا تنكر ، وكان فى نظر البعض الآخر مفتريا على الحق مختلقا للاكاذيب ناشرا للباطل . ولم يكن أمام الجمهور الا أن يختار بين هذين الطرفين : فانت اما مع هيكل ، فتصدق كل ما كتب ، واما ضده ، فتكذب كل ما قال .

اما كاتب هذه السطور فيؤمن ايمانا راسخا بأن هذا الاستقطاب للجماهير بين ناصريين وساداتيين ، وهذا الاختيار المفروض عليها

بين التصديق المطلق والتكذيب المطلق ، ما هو الا مظهر خطير لضيق الأفق السياسى الذى فرض نفسه على عقولنا فى العقود الأخيرة . فالقضايا الحقيقية التى تثيرها عملية « الفضح » فى كتاب هيكىل ، لا تؤدى أبدا الى الاختيار بين عهدين ، وانما تؤدى الى القاء ظلال من الشك على مرحلة بأكملها تشمل العهدين معا ، ويمكن أن تشمل غيرهما أيضا . أما الاختيار الآخر بين التصديق والتكذيب فلا بد للعقل الواعى أن يتجاوزه . والموقف الذى أدافع عنه هو أن فى وسع المرء أن يصدق الكثير جدا مما قاله هيكىل ، دون أن يكون مع ذلك مؤيدا لميكىل .

هذا الكلام قد يبدو لغزا غير قابل للفهم ، ولكن المعنى المقصود يظهر بوضوح من مثال بسيط : لو فرضنا ان أحد أفراد عصابة « المافيا » قد انشق عن الجماعة وأفشى أسرارها للمحقق ، هل سيكون هذا المحقق ملزما ، اذا صدقه فيما أدلى به من معلومات ، بأن يؤيده وينحاز اليه ؟ اننى لا أود أن يؤخذ هذا التشبيه بحرفيته ، ولكن كل ما قصده منه هو أن أضرب مثلا لتلك الحالات التى يمكن أن يكون فيها أحد طرفى النزاع صادقا ، ومع ذلك لا يستحق التأييد ولا التمجيد . وهذا المعنى الأخير هو الذى يلخص موقفى من كتاب هيكىل ، الذى أصدق الكثير مما احتواه ، وأرحب به لأنه قدم الى معلومات ما كانت لتصلنى لولا هيكىل ، ولكنى فى الوقت ذاته لا أؤيد صاحبه ولا أشعر بتقدير كبير للبواعث التى دعت الى تأليفه .

ان ما يهمنى ، منذ البداية ، هو أن يكون موقفى واضحا كل الوضوح . ولست أطالب القارى ، منذ هذه اللحظة ، بأن يقتنع برأى ، لأن هذا الاقتناع — اذا حدث — سوف تنسج خيوطه ببطء وتدرج خلال حلقات متتابعة من حديث طويل ، ولكن ما أطلب به وأصر عليه هو ألا يكون هناك أى لبس فى الموقف الذى سأأخذ به . فالقضايا الحقيقية التى يثيرها كتاب هيكىل هى ، كما قلت ، تلك التى لم يصرح بها ، أو تلك التى تؤدى اليها كتاباته دون أن يقصد . والمشكلة التى تطل علينا من بين غلافى هذا الكتاب أوسع من أن تكون

مشكلة هيكل وحده ، أو السادات وحده ، أو عبد الناصر وحده .
 انها مشكلة أسلوب كامل في الحكم ، كانت القضايا التي أشار اليها
 هيكل (ببراعة ودقة) مجرد عرض من أعراضه . وعلى الرغم من أنني
 سأسير في كثير من الأحيان الى ما قاله هيكل في « خريف الغضب »
 فان هدفي الحقيقي ليس التعليق على كتاب أو نقد مؤلفه ، بل ان هدفي
 هو الكشف عن تلك الظروف والأوضاع التي جعلت الكتاب ،
 والكتاب ، والرؤساء الذين يتحدث عنهم ، على ما هم عليه .

ولكى يزداد موقعي وضوحا ، فاني أود أن أعلن منذ البداية
 أنني أزيد هيكل في الكثير مما قال ، ولكنني استنتج من كل ما قاله
 أمورا مختلفة كل الاختلاف ، تجعلني معارضا لاتجاهاته العامة في
 معظم الأحيان . ولست أود أن يستنتج الساداتيون من معارضتي
 لاتجاهات هيكل أنني أقف معهم على أي أرض مشتركة ، بل أنني
 أرفض على نحو قاطع أية محاولة منهم لاستغلال انتقاداتي لهيكل
 من أجل دعم موقفهم . فانا ، بلا موارد ، معارض للساداتية بكل
 قوة . ولكن هذا لا يعني أنني أنحاز الى الطرف الآخر في الاستقطاب
 السائد في هذه الأيام ، بل أنني أكتب من منظور أوسع من هذا
 الاستقطاب بكثير ، ولا أقبل أن يجرنى أحد الى طرف من أطرافه .
 ان هيكل يقوم في هذا الكتاب بمحاولة مستحيلة ، هي أن
 يقطع عهدا من سياقه الكامل ، ويعزله عن سوابقه . وأية نظرة
 مدققة الى تاريخ العقود الثلاثة الأخيرة في مصر تقنعنا باستحالة
 فصل قطعة من هذا التاريخ عن مقدماتها الضرورية . فلنسلم منذ
 البدء بأن لكل نظام في الحكم شكلا ومضمونا . اما المضمون فهو
 اتجاه السياسات التي يتبعها ، واما الشكل فهو الأسلوب الذي يطبقه
 من أجل تنفيذ هذه السياسات . واذا كان من المسلم به ان مضمون
 العهد الساداتي مختلف اختلافا كبيرا عن مضمون العهد الناصري ،
 فان من الحقائق التي ينبغي ألا تغيب عن الأذهان ان « شكل »
 الحكم ، أي أسلوبه ، كان متشابها الى حد كبير وبعيد طوال ثورة
 ٢٣ يوليو ، ويحمل معظم ملامحه الأصلية حتى اليوم . ولقد تحدث

هيكل أساسا عن الاختلاف - الذى ينبغي الاعتراف به - بين الاتجاهات السياسية عند عبد الناصر والسادات ، ولكنه كاد أن يغفل تماما الحديث عن التشابه بين أسلوب الحكم فى كلا العهدين . وفى هذا الجانب الأخير يعد السادات امتدادا لمنهج فى الحكم أُرست قواعده ثورة ٢٣ يوليو ، ويجوز أنه أضاف إليه اجتهاداته « وابتكاراته » الخاصة هنا أو هناك ، ولكن جوهر الأسلوب واحد من البداية الى النهاية - وأعنى به الحكم الفردى الذى يؤمن بحقيقة واحدة ، هى ما يعبر عنه الحاكم ، ويقمع كل ما عداها .

وهكذا فإن كل اشارات هيكل الى أخطاء ممارسات الحكم الساداتية قد تكون صائبة ، ولكن الأمر الذى يغفله هو أن من المستحيل فصل النتيجة عن السبب ، وإن الصورة تكون ناقصة نقصا خطيرا لو اكتفينا بمظهرها الأخير وتجاهلنا امتداداتها السابقة . ومجمل القول أن هيكل كان على حق عندما كشف الغيوب الخطيرة للنظام الساداتى ، ولكنه كان مقصرا تقصيرا مخلا حين عزل هذا النظام عن سياقه ، ولم ينظر اليه على أنه جزء من ظاهرة أوسع منه بكثير - مع اعترافنا الكامل بأن هذه الظاهرة بلغت قممتها المأساوية فى العهد الساداتى على وجه التحديد .

أما الخطأ الرئيسى الثانى الذى اتسم به موقف هيكل ، والذى يعد بدون مبالغة عرضا من أعراض مرض أوسع نطاقا ، فهو أنه استثنى نفسه تماما من اللوم وصب اتهاماته على الغير ، وكأنه كان طوال الوقت مشاهدا محايدا ، أو ناصحا أميناً لا يستمع اليه أحد . ولقد بحثت طوال الصفحات التى قاربت الستمئة فى كتاب هيكل ، عن سطر واحد من النقد الذاتى ، فلم أجده . وكان أقصى ما قاله عن نفسه هو أنه تصور أن السادات سيفعل كذا أو كذا ولكن تصوراته لم تتحقق ، ويكون المعنى الضمنى دائما هو أن الخطأ فى عدم تحققها يرجع الى أن الطرف الآخر لم يستمع الى نصحه ، أو لم يفعل ما كان هيكل يأمل أن يفعله . وكل من عاش هذه الفترة وتابعها بوعى ، ولم يفقد ذاكرته تحت وطأة الدعايات المتلاحقة التى تتخذ كل يوم

موقفا مناقضا لليوم السابق ، يعلم حق العلم أن هيكلم كان جزءا لا يتجزأ من معظم الأخطاء التي يعييبها على السادات ، وأن دوره قد بلغ ذروة التأثير في سنوات التكوين الأولى ، التي تشكلت فيها معالم السياسة الساداتية الجديدة ، والتي ترجع إليها معظم التطورات اللاحقة . هذه حقيقة لابد أن يشبثها التاريخ على نحو قاطع ، ومع ذلك فإن من يبحث عند هيكلم عن كلمة واحدة تعبر عن تأنيب الضمير أو مراجعة النفس أو نقد الذات على ممارسات غرست البذرة الأولى والأساسية للشجرة التي نمت معوجة فيما بعد ، سيكون بحثه قد ضاع هباء .

عند هذه النقطة لا يملك المرء إلا أن يتساءل : ما الذي أتاح لهيكلم كل هذه الفرص التي مكنته من أن يوجه نقدا موجعا للعهد الساداتي ، إذا كان هو ذاته قد أعطى هذا العهد ، بجهوده الواعية والمتعمدة ، معالمه الأولى التي حددت قسمااته وملائحه لوقت طويل فيما بعد ؟ هنا لا يملك المرء إلا أن يفكر مليا في قول هيكلم ، في مستهل كتابه ، أن فكرة الكتاب قد طرأت على ذهنه منذ اللحظة الأولى لدخوله المعتقل في سبتمبر ١٩٨١ ، ثم قوله في الفصول الأخيرة من الكتاب ، أنه لم يكن يتصور أن السادات سيقدم على اعتقاله ، على الرغم من كل ما بينهما من خلافات .

لقد كان لدى هيكلم سلاح جبار يخشاه الجميع ، وهذا السلاح هو الذي جعله واثقا من أنه لن يعتقل . فلما تجاوز السادات الحد ، في لحظة يأس لم يترك فيها اتجاهها من اتجاهات الفكر والسياسة والعقيدة في مصر إلا واعتقل أهم ممثليه ، قرر هيكلم أن يصوب إلى السادات طلقات سلاحه الجبار : الأرشيف .

لقد كان هذا السلاح ، منذ البداية ، نتاجا لظاهرة الحكم الفردي التي ازدهر في ظلها هيكلم . فمن خلال صلته الوثيقة بعبد الناصر ، كانت الأسرار والوثائق الخطيرة تأتيه وحده دون غيره ، وكان هو ذاته يحرص على تسجيل كل صغيرة وكبيرة تدور حوله ، مدركا بذلك أن كل كلمة تسجل يمكن أن تكون مصدر قوة له في يوم من الأيام .

ولم تكن البراعة الصحفية وحدها ، ولا الذكاء الشخصي وحده ، هما اللذان أتاحا له هذه الفرص ، بل ان انعدام الديمقراطية وسيادة جو التكتّم والقرار الفردي المفاجيء ، جعل من الضروري أن يضيق نطاق المطلعين على الأسرار الى أبعد حد . وهكذا اطلع هيكل على ما لم يكن متاحا للآخرين ، أو مطروحا على الناس ، وهذه ذكاؤه الى أن يسجل أولا بأول كل ما هو « خفى » و « ممنوع » . ومنذ أن تبين له أن الناس يتلهفون على قراءة الأسرار التي لا يعرفها أحد صباح يوم الجمعة ، أدرك هيكل أهمية « سلاح الأرشيف » من حيث هو مصدر قوة وحماية له في نفس الوقت :

بل ان أحد الكتاب الساداتيين ، ممن كانوا على صلة وثيقة بهيكل « ١ » ، يذهب الى ان سلاح المعلومات كان يستخدم عند هيكل في العطاء أيضا . فهو يرى أن من أهم أسباب المكانة الخاصة التي اكتسبها هيكل لدى عبد الناصر ، منذ أول سنوات الثورة ، انه كان يزود زعيم الثورة بقدر هائل من المعلومات التي تتجمع لديه من قراءاته الواسعة ، والتي كان عبد الناصر - وهو لا يزال ضابطا حديث العهد بالحكم - في أشد الحاجة اليها . وهكذا بدأ هيكل بالعطاء ، وفيما بعد سددت له هذه الديون أضعافا مضاعفة ، عن طريق فتح خزائن الأسرار كلها له . وهكذا كان « سلاح الأرشيف » ذا حدين : يعطى أولا ، ثم يأخذ بعد ذلك بلا حدود .

ولكن ، على الرغم من كل هذه الفرص الاستثنائية التي أتاحت لهيكل وحده ، في ظل أسلوب حكم فردى مطلق ، وكشفت له عن القوة الهائلة التي تكمن في « سلاح الأرشيف » ، فإن المرء لا يملك الا أن يشعر بوجود سر خفى في تلك المقدرة الهائلة على جمع المعلومات واختزانها وإعادة استخدامها واستثمارها في الوقت المناسب . لقد سخر هيكل من الضباط الذين قلبوا بيته الريفى ، وقت اعتقاله الأخير ، بحثا عن أوراقه السياسية ، مؤكدا لهم ان الرئيس ذاته

(١) انظر : سلاح منتصر : « الأستاذ هيكل - شاهد أم شريك ؟ » الامرام

يعلم انه (أى هيكل) لا يحتفظ بشيء من أوراقه فى بيته ، وأنه يبعث بها أولا بأول الى خارج البلاد . وهكذا كان الارشيف بالنسبة الى هيكل ، بالاضافة الى كونه مصدر قوة ، تأمينا على الحياة ، وضمانا ضد أى شكل من أشكال الاضطهاد : فهو يحمل معه أسرار الجميع ، بالوثائق ، ويوم يمسه سوء ستعلن هذه الاسرار وتفضح كل شيء ، ومن هنا كان الحرص على أن تظل خارج البلاد . ولكن يظل السؤال قائما : هل يستطيع فرد واحد ، مهما كان ذكاؤه وتشعب قدراته ، أن يجمع كل هذه المعلومات ، ويرتبها بهذه الدقة ، ويبعث بها أولا بأول الى الخارج ؟ لست أدري ، ولكنني كلما أمعنت الفكر فى هذه الظاهرة بدا لى انها أعقد وأوسع نطاقا من امكانيات أى فرد ، بل من امكانيات أى جهاز فى دولة متخلفة ، وخيل الى اننا نجد أنفسنا هنا على مستوى يكاد يصل الى مستوى أجهزة المخابرات فى الدول الكبرى . وهكذا فان هيكل عندما وجد نفسه معتقلا ، وحين تبين له أن السادات تجاوز الحدود وتحدى قدراته ، سلط عليه أرشيفه الجبار ، وحقق لنفسه انتقامه الشخصى من حاكم كان بيته بالفعل من الزجاج ، وكان متهورا ويائسا عندما اختار هيكل بالذات ليكون واحدا ممن يرميهم بالحجارة .

على أن الأمر الملفت للنظر ، والذي تتجلى فيه سخريه الأقدار بحق ، هو ان « سلاح الأرشيف » ، مثلما انه مصدر قوة هيكل ، هو أيضا مكن الضعف فيه . ذلك لأن من يستخدم هذا السلاح يستطيع بأكثر الامكانيات تواضعا ، أن يصيب هيكل فى مقتل . ويكفى أن يرجع بانتظام الى قائمة كتاباته فى أواخر الأربعينات ، ثم فى مختلف مراحل الخمسينات والستينات ، وأخيرا فى أوائل السبعينات ، ويكفى أن يقارن هذه الكتابات بعضها ببعض ، أو بما يظهر منها فى المرحلة الراهنة ، لكى يجد لديه مادة هائلة تستخدم ضد هيكل بسهولة تامة . وحسبنا أن تضرب لذلك مثلا واحدا مما نشر فى الصحف المصرية أخيرا . فيها هو ذا كاتب يتجاسر فيقول : « ان تاريخ الأستاذ محمد حسنين هيكل صفحة سوداء فى تاريخ

مصر . لقد اتهمه الرئيس محمد نجيب بالخيانة لحساب دولة أجنبية ، وكتب ذلك في كتابه « كلمتى للتاريخ » ، كما اتهمه مايلز كوبلاند في كتابه : « بغير عباءة أو خنجر » بأنه كان عميلا مخلصا . كما اتهمه خروشوف بنفس التهمة وذكر له قيمة المبالغ والشيكات التى تسلمها من وكالة المخابرات المركزية ، وكان ذلك عندما سافر سيده (يقصد عبد الناصر) الى روسيا واصطحبه معه فى هذه السفرة ، فلما واجهه نيكيتا خروشوف بهذه الفضيحة المرة اضطر أن يسافر فى اليوم التالى عائدا الى مصر » (٢) .

هنا نجد « سلاح الارشيف » يستخدم ضد أبرع من أتقنوا استخدامه . واذا كنا لا نملك الحكم على مدى صحة الوقائع الواردة فى هذا الكلام ، فان الاتهامات التى تحدث عنها الكاتب قد وجهت بالفعل الى هيكل على أيدي نجيب وكوبلاند وخروشوف ، وكل ما فعله الكاتب هو انه رجع الى الوراء قليلا مقلبا صفحات الجرائد فى السنوات الماضية . وما هذا الا مثل واحد يكشف عن الوجه الآخر لسلاح الارشيف ، عندما يسدد الى عنق صاحبه .

(٢) انظر : محمد على ابو طالب : « انى اتهم ا - » الاخبار ٣٠/٤/١٩٨٣ .

الفصل الثانى

من الذى يشتم مصر

أثار كتاب هيكل ، أو على الأصح الجزء الضئيل الذى نشر منه فى مصر ، عاصفة عاتية من ردود الفعل . وفى رأى أن دراسة ردود الفعل هذه ، باتجاهاتها المختلفة وتشعباتها الكثيرة ، تزودنا بذخيرة هائلة نستطيع من خلال تحليلها المتعمق ، أن نفهم الكثير عن طبيعة التشويه الفكرى الذى أصبحت بلادنا تعانيه ، وعن شكل التضليل الإعلامى الذى يسلط على عقولنا ليل نهار . وفى ردود الفعل هذه تتحدد مواقف كثيرة وتتكشف وتظهر حقيقة الأفكار التى ظلت كامنة ، مستترة ، مغلفة بشتى أنواع الأقنعة الخداعة . ومن خلال ردود الفعل هذه يتضح اتجاه المصالح الحقيقية فى مصر ، إذ كان معظم المدافعين عن السادات من المنتفعين منه ، أو من أصحاب المصالح التى ازدهرت فى عهده ، وإن لم يمنع ذلك من وجود بعض المتأثرين بطوفان الاعلام . ومن خلالها ينكشف تهافت وتناقض الشخصيات التى كان لها دور مصيرى فى تاريخ مصر ، ودور أساسى فى تشكيل عقلها ، وهو حكم لا أستثنى منه هيكل نفسه . ومن خلالها تظهر للعيان جريمة الحكم الفردى التى لا تغتفر ، اذ يتبين لنا بوضوح مدى التزييف الذى طرأ على الوعي السياسى المصرى ، متمثلا فى عدد غير قليل من كبار مثقفيه ، بعد ثلاثين عاما من حكم

يفترض أنه ثورة تستهدف ، على وجه التحديد ، تحرير الوعي من أوهامه .

وأخيرا ، فمن خلال ردود الفعل نستطيع أن ندرك أن كان عهد السادات قد انتهى حقا ، أم أن آثاره ما زالت تدب فيها الحياة بكل عدوانية وتحفز .

إن دراسة العقل المصرى وتحليل سماته كما تتمثل فى اتجاهات ردود الفعل على هيكل ، هى فى نظرى أهم الأهداف . ولم يكن كتاب هيكل فى هذه الحالة الا فرصة لكشف أساليب التفكير المستورة ، التى تظل فى حالة كتمان حتى تطرا أزمة أو محنة تفجرها . وهكذا سوف أتوقف طويلا عند ردود الفعل ، وأخضعها لتحليل سأحاول أن يكون دقيقا ، آملا أن أتمكن عن طريقها من إلقاء الضوء على بعض سمات العقل المصرى - التى تجمعها روابط مشتركة كثيرة مع العقل العربى بوجه عام - بعد ثلاثين سنة من حكم ثورة ٢٣ يوليو .

« هذا الرجل (السادات) قد اخترناه جميعا زعيما لهذا البلد ، واختيار زعيم فيه تجسيد للشعب الذى اختاره ، وبالتالى فإن كل ما يقال عن هذا الزعيم يعتبر فى حقيقته نيسلا من الشعب الذى اختاره » .

قائل هذه الكلمات أستاذ كبير فى القانون ، فى اجتماع للمجلس الأعلى للصحافة خصص لمناقشة كتاب هيكل ، ونشرته جريدة « الأهرام » فى ٢٩ إبريل ١٩٨٣ . والأساس الذى يبنى عليه تفكير أستاذ القانون هو أن الحاكم تجسيد لبلده ، ما دامت قد اختارته بارادتها ، ومن ثم فإن أى هجوم من هيكل أو غيره على السادات هو هجوم على مصر كلها .

هذا النوع من التفكير بلغ ، فى السنوات الأخيرة ، من الانتشار حدا يحتم علينا أن نتوقف طويلا عنده . فما من أحد منا الا وتعرض مرارا لتلك التجربة المثيرة والمستفزة ، تجربة المناقشة

مع شخص يؤكد أن أى نقد للحاكم هو انتقاص من قدر بلاده ، وأن الوطنية الحققة تحتم على المرء ألا يسئ الى الحكام .

ولا شك أن عبارة أستاذ القانون ، السابقة ، هى تعبير نموذجى عن وجهة النظر هذه :

أ - فهو يستخدم لفظ « الزعيم » مرتين ، وهى نفس الكلمة التى كان يطلقها النازيون على هتلر (الفوهرر) والفاشيون على موسوليني (الدوتشى) . وليس هذا استخداما اعتباطيا ، اذ كان يمكنه أن يقول : الحاكم ، أو رئيس الدولة ، ولكن اصراره على لفظ « الزعيم » هو جزء لا يتجزأ من العقيلة التى توحده على نحو مطلق بين شخص الحاكم وبلده .

ب - وهو يرى هذا الزعيم « تجسيدا » للشعب ، ولم يقل « ومزا » ، لأن الرمز لا يتعين أن يكون مشابها لما يرمز اليه (اللون الأخضر رمز لامكان مرور السيارات مثلا) ، بل تفصل بينهما مسافة ما ، أما التجسيد فهو اندماج كامل . بل ان الزعيم يصبح فى هذه الحالة « خلاصة » شعبه وأنقى تعبير عنه . وهذا يفترض ، بطبيعة الحال ، أن الشعب كتلة متجانسة لا تمايز فيها ولا اختلاف ولا تباين فى رأى أو الانبعاث ، حتى يستطيع شخص واحد أن يكون تجسيدا له . ومن هنا فمن المؤكد أن الانجليز ، مثلا لابد أن يسخروا ممن يرى فى « ثاتشر » تجسيدا لهم ، اذ أنها حتى لو كانت تجسيد المحافظين ، فماذا نقول عن العمال والأحرار ؟ فضلا عن ذلك فان الزعيم الذى يجسد شعبه هو ، بحكم تعريفه ، غير قابل للتغيير ، والا فكيف نتصور أن يتخلص شعب ممن يجسده ؟

ج - وأخيرا ، فان أستاذ القانون الكبير يتحدث أربع مرات ، فى أقل من ثلاثة أسطر ، عن « اختيار » الشعب للزعيم . وهكذا فانه ، بكل وقار القانون وهيبة الأستاذية ، يعلن ثقته المطلقة وتصديقه الكامل لاستفتاءات ٩٩٩٩٪ ، ويرى فيها أساسا يسمح للمرء بأن يقول باطمئنان تام وبضمير مستريح : « هذا

الرجل قد اخترناه جميعا ،
هذه الكوارث أو الفواجع الفكرية تتجمع كلها فى أقل من
ثلاثة أسطر ، وتعبر بوضوح صارخ عن تدنى مستوى الوعي
السياسى والاجتماعى عند من يفترض فيهم أن يكونوا معلمين
ومرشدين لغيرهم فى هذا الميدان ، وهى فى واقع الأمر أبلى دليل
على نوع العقول التى توحد بين الحاكم وبلده ، وترفض أى نقد
للمحاکم بحجة أن هذا النقد اهانة لوطنه ونيل منه .

على أن لهذا اللون من التفكير ، أعنى التوحيد بين الحاكم
والوطن ، وجها آخر ربما كان أشد حدة ، هو ذلك الذى يشيع بين
المصريين المغتربين على وجه التخصيص . فظروف الاغتراب تزيد من
قوة التوحيد بين البلد وحاكمها ، ومن هنا كان من ردود الفعل
الأكثر شيوعا ، بين المصريين العاملين فى البلاد العربية بوجه خاص ،
استنكار ما كتبه هيكىل باعتباره « شتيمة لمصر » .

هذه ظاهرة لم تتمثل فى حالة هيكىل وحده ، بل تعرض لها
كل من يكتب كتابة نقدية عن الأوضاع المصرية فى احدى الصحف
العربية . كما أن من يستخدمون هذه الحججة ليسوا هم المواطنين
المغتربين العاديين لحسب ، بل ان المرء يجدها تتردد على أعلى
المستويات . وأستطيع ، من تجربتى الشخصية ، أن أؤكد أن
النسبة الغالبة من أساتذة الجامعات المصريين العاملين فى بلد كالكويت
تحتج بشدة على أى مقال يوجه نقدا لحاكم مصر أو حكومتها ،
باعتباره هجوما على مصر . وهكذا فان شيوع هذه الحججة بين المغتربين
يفوق بكثير انتشارها داخل مصر ذاتها ، ولذا كانت تحتاج الى وقفة
مثنائية تناقش الأسس التى ترتكز عليها بهدوء .

١ - أول أساس لهذه الحججة هو ذلك الذى أوردناه من قبل ، وأعنى
به أن الحاكم تجسيد لبلده . ويزداد الحرص على فكرة
التجسيد هذه عندما يكون الشخص مقتربا ، بحيث تتضاعف
حساسيته ازاء أى نقد يوجه الى الحاكم . وكم من مصرى

معترب ينتقد كتاب هيكمل ، على سبيل المثال ، انتقادا مريرا ،
لا لأنه غير مقتنع بما يتضمنه من وقائع ، بل لأنه ، حتى لو
كانت كل كلمة فيه صحيحة ، يسيء الى صورة « مصر » .

ان قليلا من التفكير يقنعنا بأن الحريص حقا على سمعة
بلاده هو الذى لا يوحد بينها وبين حاكمها . وفى حالة بلد
كمصر يكون من المخجل حقا أن يساوى المرء بين ذلك التاريخ
العريق ، والحضارة الأصيلة ، بين بلد النيل والأهرام والأزهر ،
وبين تصرفات حكام أفراد يمكن أن يكون الكثيرون منهم
مصابين بجنون العظمة أو داء الاستبداد والبطش والادعاء .
ان من يعتز ببلده وتاريخه حقا هو ذلك الذى يعلن فى كل
مكان ، وأمام الجميع ، أن مصر ليست مسئولة عن أخطاء
حكامها ، وينزه بلده عن تلك النقائص التى يمكن أن يتصف
بها هذا الحاكم أو ذاك . أما ذلك الذى ينصب نفسه محاميا
عن كل خطأ يرتكبه الحاكم ، متوهما أنه يدافع على هذا النحو
عن وطنه ، فهو فى الواقع الذى يسيء الى هذا الوطن أبغ
إساءة . ولو اتخذت مسألة التوحيد بين الحاكم والوطن قاعدة
عامة ، لكان علينا جميعا أن نحمل بلدا كمصر أخطاء فاروق
والحدوي توفيق والحاكم بأمر الله وقراقوش .

٢ - ولكن أصحاب هذا الموقف يلجأون ، عادة ، الى اضافة حجة
أخرى ، هي الإشارة الى الفارق بين النقد داخل الوطن والنقد
خارجه . ففى استطاعتك أن تنقد الأوضاع كما تشاء ما دمت
فى بلدك ، أما اذا كنت فى بلد آخر فان الواجب يقضى عليك
بأن تمتنع عن النقد ، بل تتصدى له بكل قوة ، حتى لا تترك
« للغرباء » فرصة « السماتة » فى وطنك . ويشارك الحاكم
ذاته فى هذه الحجة : فهو يهاجم بكل العنف أولئك الذين
« يشتمون مصر » فى الخارج ، وربما استخدم التعبير المألوف
« نشر الفسيل » ، ويجد هذا الرأى صدى لدى الكثيرين ممن
يتقبلون ما يقرأونه أو يسمعون به تفكير . ولكن الأمر

المؤسف هو أن الأمر لا يقتصر على هؤلاء ، بل ان نسبة كبيرة من المثقفين الذين يشغلون مراكز علمية واجتماعية مرموقة تردد في كل مناسبة هذا المبدأ : « انتقد بلدك في الداخل كما تشاء ، ولكن عليك في الخارج أن تدافع عنها (والمقصود هنا بالطبع : تدافع عن حكماها) بالحق أو بالباطل ، ولا تسمح لأحد بمهاجمتها (والمقصود : مهاجمة حكماها) » .

فلنناقش اذن هذا المبدأ الخطير ، المنتشر على أوسع نطاق بين أوساط المصريين المنصريين على مختلف مستوياتهم :

أولا : هذا المبدأ يفترض أن العرب ، الذين يقيم هؤلاء المصريون في بلادهم ، هم بالنسبة اليهم « غرباء » . والأمر الملفت للنظر حقا هو أن نفس هؤلاء الذين يفكرون بهذا المنطق يمكن أن يتحدثوا باستفاضة ، في مجال آخر ، عن وحدة العروبة والمصير المشترك والحواجز المصطنعة بين الأقطار في الوطن العربي الواحد ، ولا يدركون التناقض الصارخ بين حدينهم المتحس هذا وبين نظرتهم الى العرب على أنهم « غرباء » لا ينبغي أن تطرح مشاكل مصر الداخلية أو الخارجية أمامهم ، ولا ينبغي أن تتاح لهم فرصة « الشتماة » في مصر . فكيف يسمح هؤلاء لأنفسهم بأن يكونوا اقليميين الى أقصى حد في جانب ، ووحديين متحمسين في جانب آخر ؟ أليس من الواضح أن الايمان الحقيقي بوحدة العروبة يحتم على المرء ألا يجد فارقا بين المصري وأي عربي في نقد الممارسات الخاطئة لأي نظام من الأنظمة ، سواء آكان هذا النظام مصرية أم لم يكن ؟

ان العرب ، من غير المصريين ، لا يهتمون بأوضاع مصر من أجل « الشتماة » ، كما يتصور قصار النظر هؤلاء ، بل ان ما يحدث في مصر من مد وجزر ، ومن تقدم أو تخلف ، هو الشغل الشاغل لكل عربي لسبب بسيط : هو انه لابد ، عاجلا أو آجلا ، أن يتمكس على بلاده ايجابا أو سلبا . وما من عربي مستنير الا ويتابع سياسة مصر بكل ما يملك من ترقب واهتمام ، لأنه يعلم أن مفتاح المنطقة

كلها هناك ، ولأنه يخشى على بلده من أن يلحقها أى مكروه يصيب مصر قبلها . وهكذا فإن الاهتمام الزائد الذى يبديه أى عربى بأوضاع مصر ، يظل فى واقع الأمر اعترافا بمكانة مصر الرئيسية فى الوطن العربى ، حتى لو اتخذ شكل انتقاد مرير لأوضاعها . فلماذا لا يبدى أحد اهتماما بانتقاد ما يحدث داخل موريتانيا أو جيبوتى مثلا ، حتى لو تراكت الأخطاء فى ممارسات حكام هذين البلدين ؟ .

ثانيا : يفترض هذا المبدأ أن فرص النقد مكفولة داخل مصر . ولكن أصحابه يخدعون أنفسهم ، فى الواقع ، خداعا مكشوفاً حين يتظاهرون بالوطنية فيقولون : انتقد حكام مصر فى داخلها كما تشاء أما فى خارجها فلا . من الذى يستطيع أن ينتقد حكام مصر فى داخلها « كما يشاء » ؟ لقد ظل كتاب مصر ومثقفوها الذين يحملون هموم مصر على أكتافهم يحاورون ويناورون ، لمدة ثلاثين عاما ، كلما وجدوا أمامهم ممارسات خاطئة . وكم من نقد كان يمكن أن ينقد البلاد من كوارث رهيبة ، عوقب موجه أو أرغم على السكوت ، أو اضطر - على أحسن الفروض - الى التعبير عنه بحذر والتواء حتى يمكن أن يجد طريقه الى الناس وسط الرقابة الصارمة . فلماذا نغالب أنفسنا ونتصور أن من ينتقد فى الخارج يفعل ذلك طواعية ، وأنه كان يستطيع أن ينقد فى الداخل ولكنه اختار - لمصالح خاصة - منبرا للتعبير خارج بلاده ؟ .

ثالثا : من الممكن أن يدرك المرء ، حين يعمل فكره قليلا ، أن معظم أصحاب هذا المبدأ يقومون بعملية إسقاط لخلافاتهم الصغيرة فى العمل ، ومنااساتهم الشخصية مع جنسيات عربية أخرى فى نطاق العلاقات الفردية الضيقة ، على موقفهم السياسى العام . فكل منهم يتصور أن ظهور نقد للأوضاع المصرية فى جريدة صباحية سيجعل زميله أو رئيسه العربى فى المكتب أو المصنع يكسب نقطة على حسابه حين يفتح الجريدة ، وينتهاز الفرصة للتشغى منه . وهذه نظرة طفولية ضيقة تخلط بين العلاقات الشخصية والشئون الوطنية

العامة ، وان كانت للأسف واسعة الانتشار حتى على أعلى المستويات .
 ان هذا الخلط بين المستوى الشخصي للسلوك ، وبين تقييم
 العمل السياسى العام ، هو آفة من أخطر الآفات فى تفكيرنا المعاصر ،
 وهو علامة واضحة على أن تربيتنا السياسية بعيدة كل البعد عن
 ذلك النضوج الذى لابد منه لقيام نهضة حقيقية . وسوف نتاح لنا ،
 خلال معالجتنا لجوانب الموضوع الذى نتناوله فى هذه الدراسة ،
 فرص كثيرة لرؤية أمثلة أخرى لهذا الخلط . ويكفى أن نقول الآن ان
 الكلام عن « التشنفى » أو « الشماتة » حين يكون الأمر متعلقا
 بالسياسة العامة لبلد من البلاد ، هو مظهر للبدائية فى التفكير .
 أما « نشر الغسيل » وهو للأسف تعبير ما زال يستخدمه مسئولون
 كبار - فهو تعبير مضحك ومؤسف فى آن واحد . وليقل لى هواة
 هذه التعبيرات : هل سمع أحد منكم واحدا من أنصار ريجان أو
 ميتران يتحدث ، فى معرض تقييمه لسياسة بلاده ، عن « الغسيل » ؟
 ان الفكرة الكامنة من وراء هذا هى فكرة « الستر » ، وهى مبدأ
 أخلاقى مذموم حتى على المستوى الفردى . ففي أخلاقنا الشعبية
 نزوع شديد الى التغطية على العيوب ، الى درجة أن اقتضاح هذه
 العيوب ومعرفة الآخرين بها هو فى نظرنا شر يفوق العيوب نفسها .
 وكثيراً ما نتصرف بحيث نتغاضى عن أخطر أنواع الآثام ما دامت
 « مستورة » ، ومن هنا كان « الستر » أمنية غالية فى تعبيراتنا
 الشعبية المألوفة . ولكن الخطأ الفكرى والأخلاقى يتضاعف حين
 ننقل هذا المبدأ الى ميدان السياسة ، فنندعو مواطنينا الى السكوت
 على أوضاع جائرة حتى لا تفتضح أمام الآخرين ، ونطالبهم بالآ
 « ينشروا الغسيل » بدلا من أن نطالب أنفسنا بأن نبقي غسيلنا
 نظيفا على الدوام .

وهكذا تكشف لنا ردود الفعل على كتاب هيكلى عن أخطاء
 فكرية فادحة ترسخت فى عقولنا وسرت فيها مسرى البديهييات التى
 لا تناقش ، ويتبين لنا أن توحيدنا بين تصرفات الحاكم وبين سمعة

بلاده هو ابلغ دليل على أن لعبة الحاكم الفرد لا تقتصر على من يارسها
بنفسه ، بل ان الذين تمارس عليهم هذه اللعبة قد اندمجوا فيها
وانتقلت عدواها اليهم دون أن يشعروا ، وان الخاضع للاضطهاد قد
تقمص الكثير من أفكار من يضطهده ، وان الطفيان أصبح جزءا من
تكوين المحكوم ، لا الحاكم وحده ، الى حد انه أصبح يوحد نفسه ،
وبلده ، وكرامته ومكانته ، مع شخص الحاكم المطلق ، ويقدم بتفكيره
الخاص أقوى دعامة لذلك الاستبداد الذي يكتوى بناره ليل نهار .

الفصل الثالث

لعبة الأحياء والأموات

حين نمضي في رحلة الكشف عن مظاهر تزييف الوعي وانهيار العقل والمنطق ، كما تمثلت في ردود الفعل على كتاب هيكل ، ستظهر لنا أمثلة أخرى مؤسفة لذلك الخلط الذي أصبح سائدا على كافة الأصعدة ، بين أساليب الناس في التعامل معا على المستوى الشخصي ، وأساليبهم في النظر الى أمور المجتمع العامة ، على المستوى السياسى . ولكننا سنكتشف أيضا أن قدرة المزييفين على الحداغ وصلت الى حد من الجرأة ، بل من الصفاقة ، يفوق كل تصور ، وأنهم ما كانوا ليبلغوا هذا المدى لو لم يكونوا قد اعتادوا النظر الى الجمهور على أنه قطيع ينقاد ، بلا عقل ، فى أى اتجاه يفرض عليه . وهذا التعالى على الناس ، والاعتقاد بأن أية أكذوبة يمكن أن تمر عليهم ، ليس الا النتيجة الطبيعية لجو القهر المخيم منذ أمد بعيد ، والذي أشاعه عهد لا يجعل للجماهير من دور سوى التصفيق والتصديق .

لنستمع الى كاتب كبير كان له يوما دور بارز فى الحركة الوطنية المصرية ، ولكنه انجرف فى ثيار التضليل السياسى منذ السبعينات ، يعلق على كتاب هيكل فيقول : « لقد اغتالوا حياته فى ٦ أكتوبر ، عيد انتصاره الحربى ، وفى ٢٥ ابريل عيد انتصاره

السلمى يحاولون اغتيال سمعته .. اننا نصغر في عيون الآخرين ،
ويبدو بعض كتابنا بلا وفاء ، يحركهم الانتقام وتضطرب في أيديهم
الموازين .. ان ما كتبه هيكل .. ليس تحليليا ، انما هو التشهير
بعينه ، هو الاعتداء على حزمة رئيس مات .. وعلى سمعة وطن
بأسره .. من قال ان كاتب التاريخ من حقه ان يسدر الحرمات ،
ويشهر بسمعة الرجال والنساء بلا دليل ؟ من قال ان كتابة التاريخ
تعنى العدوان على سمعة الذين هم في ذمة التاريخ ، ومتى كانت
كتابة التاريخ تمزيقا للأشلاء ؟ « (١) » .

ولنستمع ، بعد ذلك ، الى أستاذ مرموق في الطب ، وأمين عام
لنقابة الأطباء ، وهو يهاجم الصحيفة التي نشرت مقالات هيكل الأولى
قبل أن تصدر ، فيقول : « هذه الصحيفة صدرت في ظل الحريات
وقانون الأحزاب التي أرسى قواعدها من أرادوا نهش لحمه حيا وميتا
لا شيء الا لأنه اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلب أمته
وأعلن عداوه للشيوعية .. » .

ويواصل الطبيب الكبير كلامه قائلا : « لا أظن ان مصريا لم
يتابع جنازة السادات ولم تدمع عيناه ولم يكتبو قلبه لوعة وحزنا على
النهاية التي أودت بحياة رئيس مصر ورمزها » .. ثم يقول « لقد
بلغ به الغضب قمته عندما رأى من مد يديه اليهم بالخير وفتح لهم
أبواب الحرية وسمح لهم بالتعبير عما يجيش في صدورهم من رأى
يمدون اليه أيديهم بالشر وأقلامهم بالقذف » (٢) .

وأخيرا ، يتخيل كاتب لم يشأ ذكر اسمه أن السادات قد تولى
الرد على هيكل ، فيتحدث بلسانه قائلا : « كرهت لانسان أن ينزع
مثلي من منامه فأوقفت زوار الفجر ، ومقت لآمن انتهاك حرمة
فأحرقت أشرطة الأسرار ومنعت التسجيل والتصنيت ، وتصديت
لشريعة الغاب فأغلقت المعتقلات ، وآمنت بحق الدفاع عن النفس
فأعليت سيادة القانون .. واغفروا لي ان كان قد دفعني بعض الأبناء

(١) عبد الرحمن الشرقاوي ، مقال بعنوان « كفى ! » - الأهرام ١٩٨٣/٤/٢٧

(٢) د. أسامة عبد العزيز ، مقال « سقطلة الحريف » - الأخبار ١٩٨٣/٤/٢٦

الى ما لا يمكن أن يحبه ويرضاه أب لكل الأبناء» (٣) .

نماذج ثلاثة لم اخترها لكى أناقش أصحابها أو أرد عليهم ، بل لكى يفتح القارئ عينيه ، من خلالها ، على الانهيار الفكرى الذى تولده عهود الانفراد بالسلطة والرأى الواحد . فما هى العيوب الفكرية التى تكشف عنها هذه النماذج ؟

أولا : حين يتحدث النموذج الأول عن يكتبون بلا وفاء ، فانه يسقط الاعتبارات الأخلاقية الشخصية على التقييم السياسى ، وكأن المؤرخ ملزم ، من أجل الوفاء للحكم اذا كان قد أسدى إليه خدمات معينة ، بأن يغمض عينيه عن عيوب هذا الحاكم ويغش جمهوره عندما يصدر حكما عليه . ثم يزداد الخلط والتشويش (الذى لا أظنه كله متعمدا ، بل هو يعبر عن الطريقة التى أصبح يفكر بها الكاتب نفسه) حين يتحدث عن « سمعة الوطن » ، واهدار الحرمات ، والتشهير بالرجال والنساء . ويصل الضباب الفكرى الى ذروته عندما يستخدم الكاتب تعبيرات انشائية لا مجال لها على الإطلاق فى السياق الذى يتناوله ، وكل ما تؤدي إليه هو ايجاد جو من التعاطف مع « الضحية » ، أو جو من النفور من « المعتدى » ، مثل « العدوان على سمعة الذين هم فى ذمة التاريخ » أو « تمزيق الأشلأ » . هكذا أصبح للتاريخ « ذمة » ، وهذه الذمة تحمى الحاكم من أى نقد ، وتجعل من يمس الحكام اللاجئيين اليها « ممزقا للأشلأ » !

ثانيا : أما النموذج الثانى فأمره أغرب . انه يؤكد ببساطة شديدة ان السادات ، حين أعلن عداؤه للشيوعية ، انما اتخذ موقف الصديق مع شعبه واستجاب لمطلبه . وهكذا يقرر الطبيب المرموق ان مطلب الشعب المصرى ليس المعيشة الآدمية ولا المواصلات السهلة ولا المسكن المعقول ولا الخبز الضرورى ، وانما هو العدا للشيوعية . ولا يخجل الكاتب من أن ينسب اللوعة والحزن إلى المصريين جميعا فى تلك الجنازة التى شهد الأمريكان أنفسهم بأنها قوبلت من الشعب بعلم اكتراث كامل . وأخيرا ، فان الكاتب ينظر الى الحاكم على انه

(٣) مقال بعنوان « مهم كل الحق .. نشأتى عقدتى » ، ١٠ مايو ١٩٨٣ .

ولى النعم ، ويصل به تقديس الفرد ، واحتقار الجماهير ، الى حد القول انه هو الذى يمد يديه بالخير ، وهو الذى يفتح أبواب الحرية ، وهو الذى يسمح للناس بالتعبير - ويرى هذا كله وضعا طبيعيا يدافع عنه بحرارة . وفى مقابل ذلك فان المعارضين الجاهدين لا يردون على هذا الخير الذى يتصدق عليهم الحاكم به الا بالشر والقذف .

ان مستوى الوعي السياسى هو الذى يهم فى الموضوع كله .
فها هو ذا انسان لابد انه سافر مرارا الى الخارج ، وقرأ ذلك الكم الهيب من « الشر والقذف » الذى تحتشد به صحف حزب العمال ضد فانتشر أو صحف الديجوليين ضد ميتران ، ورأى نماذج لا حصر لها للمعارضة القاسية الضارية ، التى تتقبلها الحكومات بكل ترحيب ، ومع ذلك فهو لا يقبل لبلده الا أسوأ نموذج : ذلك الذى يكون فيه الحاكم مانحا للخير ، والمعارض الناقد معتديا أثيما .
أنقول انها عقلية عصر الانفتاح ، منعكسة على ضمائر أقطاب العهد ؟ أنقول ان الطبيب الكبير يدافع عن عهد يتيح له أن يتقاضى عن المريض الواحد ، فى كشف يستغرق دقائق قليلة ، مقدار ما يتقاضاه خريج الجامعة الحديث ، اذا عين موظفا حكوميا ، ليعيش به فى شهر كامل ؟ لست أدري ، وكل ما أعرفه هو انها محنة فكرية ، قبل أن تكون أزمة فى الضمائر .

ثالثا : وأخيرا ، فان النموذج الثالث ، الذى يقدمه الينا حديثا متخيلا بلسان السادات ، يكرر بلا موارد أفكار النموذج الثانى عن الحاكم من حيث هو « ولى النعم » ، ويقدم مجموعة غريبة من الأحكام لا تصدر الا عن شخص يفترض ان قراءه قد ألغيت عقولهم وحرموا حاسة الفهم : يؤمن بأن قارئه قد نسي تماما ان عهد السادات كان فيه أيضا زوار للفجر ، وأن كثيرا من القضايا السياسية قدمت فيه بناء على شهادة أجهزة تجسس وتصنت ، وان سيادة القانون كانت تخرق حتى على مستوى أعضاء مجلس الشعب ، ولكنه يستدرك بعد ذلك فيستخدم لغة « الآباء والأبناء » فى وصف حركة اعتقالات

سبتمبر ١٩٨١ ، وبصور المسألة كما لو كان الأب الحنون ، كبير الأسرة الواحدة ، قد اضطر مثألى أن يكون صارما مع بعض أبنائه من أجل صالحهم .

ان جرأة الاعلام على التزييف والمغالطة ، حين تصل الى هذا الحد ، فلا بد أن يكون فى الأمر كله خطأ فادح . صحيح أن الاعلام فى العالم كله يبالغ ، ويخرج عن الحقائق هنا وهناك ، غير أن ثمة حدا أدنى من الاحترام لعقول الناس - ولكن هذا الحد الأدنى لا أثر له ، للأسف ، فى اعلام عهد الحكم الفردى المطلق ، ومن ثم فان الكاتب يستبيح لنفسه أن يلوى الحقائق كما يشاء ، ما دام يؤمن بأن عقول الناس قد ألفت منذ أمد بعيد .

ومع هذا كله ، فان هناك ما هو أخطر ، وأعنى به الحديث المتكرر عن « نبش القبور » ، والسؤال الذى أصبح التفكير السياسى القاصر فى هذه الأيام ، يطرحه كما لو كان قضية بالغة الأهمية ، وأعنى به : هل ينبغى أن ينقد الحاكم حيا أم ميتا ؟ لقد رأينا فى النماذج الثلاثة السابقة اشارات متكررة الى استنكار الهجوم على الحاكم بعد موته ، ولكن لابد لنا أن نقدم نماذج أخرى لهذا الاستنكار ، حتى يدرك القارئ مدى انتشار هذا اللون من التفكير . فالكاتب موسى صبرى ، وهو من أكبر الدعاة الساداتيين ، يتحدث حديثا طويلا عن « حرمة الموت والموتى » ، وعن « نبش القبور » و « انتهاك الحرمات » (٤) . ولكن الأخطر من ذلك بيان نقابة الصحفيين فى مصر تعقيا على كتاب هيكى : « ان ما نشر بعد ٠٠ اعتداء على حرمة الموتى وتعرضا لحياتهم الخاصة ومخالفا لتقاليد المجتمع الدينية والأخلاقية » .

ولقد استنكر هيكى - وكان على حق فى ذلك - استخدام رهبة الموت وقديسيته من أجل تبرئة الحكام وإبعادهم عن النقد ،

(٤) الأخبار فى ١٩/٤/١٩٨٣

فقال : « ومع ذلك فمن المفسرين من يطالب بمصادرة حقنا في أن نناقشه ، هل من المعقول أن يأتي كل حاكم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه في حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟ أهذا معقول ؟ » (٥) هذا كلام رائع بغير شك : فكل من يستنكرون مهاجمة الحاكم بعد موتهم إنما يهدفون ، في حقيقة الأمر ، الى مصادرة حق الناس في توجيه أى نقد الى الحاكم ، سواء خلال حياته أو بعده مماته . ذلك لأنهم هم أنفسهم الذين يشاركون في قمع حريات المعارضين والتنكيل بهم واتهامهم بالعمالة والحيانة لو انتقدوا الحاكم حيا ، وهم الذين ينسجون بالفضيلة والأخلاق وتقاليده المحتشم والدين أو وجهوا من يهاجم الحاكم ميتا . وهكذا فالنقد أثناء الحياة ممنوع ، وبعد الموت عيب وحرام . فهل هذا - كما قال هيكل بالضبط - معقول ؟

ولكن المهزلة الكبرى تتمثل في أن هيكل نفسه ، الذى يتلفت الآن حواليه ببراءة ويتساءل : أهذا معقول ؟ كان هو نفسه من أهم من استخدموا هذه الحججة المتهاففة ، وكان من أقوى الناس نقدا لمن يهاجمون الحاكم بعد موتهم . وهكذا نجد أنفسنا ازاء « لامعقول » آخر ، غير ذلك الذى يمثل خصوم هيكل ، هو « لامعقول » هيكل نفسه .

فلنبدأ دائما ، أقول ، العيد لهيكل . لقد نشرت الصحف المتبادلتين بين ، توفيق الحكيم وهيكل . فبماذا نجد في هاتين الرسالتين بشأن الموضوع الذى نتحدث عنه الآن ؟ قال توفيق الحكيم مخاطبا هيكل : « ان حالتى تشبه حالتك . فأنت كتبت كتابا « خريف الغضب » اعتبر هجوما ضد السادات بعد موته . وأنا كتبت كتابا هو « عودة الوعي » اعتبر هجوما على عبد الناصر بعد موته . ولكن هيكل يرفض هذا التشبيه بين الكتابين ، ويهمنى في رفضه السبب الثانى الذى قدمه للاختلاف بينهما : « لم اكتب بعد موت أحد . كتبت في حياته رأى ، وكتبت

بعد موته نتائج دراستي لما حدث « وهو يؤكد في موضع آخر ان الحكيم ألف كتابه « بعد ثلاث سنوات من رحيل عبد الناصر » على حين انه هو ذاته نقد السادات منذ فبراير ١٩٧٤ .

علام يدل هذا الحرص على نفي فكرة نقد الحاكم بعد موته ؟ على شيء واحد ، هو أن هيكل يقف على نفس الأرض التي يقف عليها خصومه ، ويفكر بنفس منطقهم ، ويتبنى نفس قيسهم . فالمعنى الضمني لديه هو أن نقد الحاكم بعد موته جين ، أو عمل غير أخلاقي . ومن هنا كان حرصه على تأكيد أنه نقد السادات حيا ، ولم ينظر ثلاث سنوات كما فعل توفيق الحكيم ، وكل ما فعله بسد موت السادات هو انه « كتب نتائج دراسته لما حدث » .

ولكن ، لنترك المعاني المفهومة ضمنا وننتقل الى الكلام الصريح . فقد نشر هيكل مفصلا بجريدة « الوطن » الكويتية (١) بعنوان : « ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » - وهو فيه ذاته عنوان بالغ الدلالة ، يتهم فيه هيكل من يتحدون الأموات بالبين لأنهم لم يمارسوا « شجاعتهم » الا على الغائبين . في هذا المقال يروي لنا هيكل قصة عتابه لعبد الناصر على قيامه باعتقال شخصية من الشخصيات المرتبطة بصحيفة « الأهرام » ، ثم يعلق قائلا : « لا أسمح لنفسي أن أقص عليك ما قلت له . ذلك الآن تجاوز لا يليق . لو كان حيا واقتضت الظروف أن أروي الحديث كله لرويته . ولكنه لم يعد بيننا . ولهذا لا أستطيع لنفسي أن أدعي الشجاعة على غائب . ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين . الفئران كلها تعربد في غياب القطط ، ولم يكن جمال عبد الناصر قطا ، وانما كان أسدا مهيبا وشامخا » .

وهكذا يصف هيكل توجيه النقد للحكام بعد موتهم بأنه عريضة فئران في غياب القطط ، ولا يدري أنه بعد أعوام قلائل من حديثه ذلك ، سيجد بدوره من يشبهه بنفس التشبيه ، بعد أن مارس هو أيضا شجاعته على حاكم غائب . والمفارقة الساخرة أن

قائل هذا الكلام هو نفسه الذى يهتف فى أيامنا هذه باستنكار :
هل من المعقول أن يفعل الحاكم ما يشاء فلا نناقشه فى حياته ، ولا
نناقشه بعد مماته ؟

وهكذا فانه ، عندما كان الأمر متعلقا بنقد تصرفات
لعبد الناصر ، وجد هيكل فى مهاجمة الأموات جبنا ، وعندما أصبح
منعلقا بالهجوم على السادات ، استنكر عدم مناقشة الحاكم بعد
مماته (ولاحظ انه استخدم فى هذه الحالة الأخيرة عبارة « كل
حاكم » أى أنه كان يصدر حكما منطقيا على جميع الحالات) . هذا
التناقض يدل على أن هيكل وخصومه يقفون جميعا على أرض
واحدة ، ويؤمنون بمجموعة واحدة من الأفكار الباطلة ، التى تركز
على نزعة أخلاقية زائفة تخاطب عواطف الناس لا عقولهم ، وتخلط
بين الموت من حيث هو كارثة إنسانية شخصية ، وبين التقييم
السياسى من حيث هو ممارسة لا صلة لها بالموتى أو الأحياء .

إن الجميع فى الوهم والضغالة الفكرية سواء ، والكل نشأوا
فى مناخ سياسى لا يسمح بالموضوعية ولا يترك مجالا للنقاش
المنطقى المجرد عن الأهواء . فالساداتيون يقولون : لقد نبشتم قبر
السادات . وهنا يرد الناصرى : وأين كنتم عندما نبش قبر
عبد الناصر ؟ أنتم فتران ! ولكنه حين ينبش هو نفسه قبر
السادات ، ويهاجمه خصومه لهذا السبب ، يتساءل فى براءة :
هل من المعقول أن يمنعونا عن نقد « كل حاكم » حيا أو ميتا ؟

إنها أرجوحة شيطانية ، يتراقص فيها الجميع سكارى بخمر
الأفكار الزائفة والقيم المضللة ، ويثبتون بها ، على نحو قاطع ،
طغولية الفكر السياسى بين جميع أطراف اللعبة بعد ثلاثين عاما من
ثورة أعلنت أن هدفها تحرير الفكر وتصحيح مسار القيم .

تظل هناك ، بعد ذلك ، نقطة واحدة يمكن أن يلجأ إليها
هيكل فى دفاعه ، وهى أن نقده للسادات بدأ أثناء حياته . هذا
صحيح ، ولكن ليقبل لى الأستاذ هيكل « بصراحة » : لو كان
السادات لا يزال حيا ، أكان يستطيع أن يتكلم عن « ست البرين»

وعن « المعجراتى المتسول » وكأس الفودكا الذى يؤخذ بعد كل غداء ؟ ليجب ، بصراحة ، أيضا ، عن هذا السؤال : ما دام هو نفسه صاحب منطق القلط والفتران ، فأين يضع نفسه ، فى هذه النقطة بالذات ، بين هاتين الفئتتين ؟

ان المسألة كلها خطأ مركب . فالكلام عن الأحياء والأموات . والتفرقة بينهم فى النقد ، أمر لا معنى له فى ظل أى وعى سياسى سليم ، ومبدأ « اذكروا محاسن موتاكم » ينطبق على الأقارب أو الجيران أو الشركاء . ولكنه خارج عن مجال الكتابة التاريخية والسياسية . ولو صح هذا المبدأ فى تلك الميادين الأخيرة ، لما استطعنا كتابة التاريخ ، ولكان الموت هو شهادة البراءة لكل حاكم ظالم أو فاسق أو طاغية ، ولأصبح كل مؤرخ ، بحكم مهنته ذاتها ، نباشا للقبور . ولكن الناس الذين اعتادوا على مدى سنوات طويلة ، أن يحصروا تفكيرهم فى شخص الحاكم ، والذين عجزوا عن أن يتصوروا أية حقيقة تتجاوزه ، هم الذين يصبغون السياسة بهذه الصبغة الشخصية ، ويحكمون على تصرفات الحكام مثلما يحكمون على سلوك « كبار العائلة » ، وينسون المسؤوليات الخاصة « لرجل الدولة » ، التى تحتتم علينا أن نحاسبه على كل شيء ، وفى أى وقت نشاء .

هذا الذى قلناه ينطبق على الموضوع كله ، من حيث المبدأ ، وفى ظل أى نظام ، حتى النظام الديمقراطى . أما النظام الدكتاتورى - الذى تدور فى ظله كل مناقشات هيكل وخصومه - ففيه يصبح الموقف أوضح . فالنظام الدكتاتورى لا يسمح بمناقشة الحاكم « الا » بعد وفاته . ومادام النظام الدكتاتورى تحكمه أسود مهيبة وشامخة ، فمن الطبيعى أن يكون هناك على الطرف الآخر ، فتران - والا فعلى أى شيء يستأسد الأسود ؟

ان الناقد الذى يهاجم أى حاكم فردى مطلق بعد مماته ، انما يتصرف تصرفا طبيعيا لا مفر منه . ولو قيل له : انك خائف ، لكان رده : نعم ، اننى لم أتكلم الا الآن لأننى كنت خائفا ، ولئى كل

الحق في أن أخاف . وحتى لو ادعى هيكمل الشجاعة فأكّد انه انتقد السادات في حياته ، فان هذه ليست قاعدة يمكن أن تسرى على الجميع . فهيكمل قد استطاع أن يختلف مع السادات في سنواته الأخيرة علنًا لأنه ديكمل ، بكل ما يحمله من نفوذ وما لديه من اتصالات عالمية وما يحتفظ به من أسرار تبعث الرعب في قلوب أقوى الأقوياء - وهذه كلها امكانيات لا تتوافر لأي كاتب آخر ، حتى لو كان في منزلة توفيق الحكيم . ومع كل ذلك فان هيكمل عندما هاجم الحاكم الفرد في حياته لم يكن يمسسه الا مساهة رقيقة ، واضطر - بكل سلطته ونفوذه وامكانياته - أن ينتظر حتى يموت لكي يفوص في الأعماق .

ان القضية كلها - أعني الكتابة عن الحاكم أحياء أم أمواتا - هي في رأينا قضية ما كان ينبغي أن تثار ، وليس الاهتمام المفرط الذي أبداه أطراف النزاع بها الا دليلا على قصور شديد في الوعي السياسي لدى الجميع . والمسألة ببساطة استغلال لعاطفية الجماهير واستغلال لعقولها من أجل الحيلولة دون نقد الحاكم حين لا يعود الناس خائفين ، بعد أن كان نقده ممنوعا عندما كانوا خائفين . والخطأ الحقيقي الذي ارتكبه هيكمل ، لا يكمن في أنه انتظر حتى يموت السادات ثم فجر قنابل المعلومات على قبره - اذ أن الدكتاتور لا يمكن نقده الا بهذه الطريقة . وانما يكمن خطأ هيكمل في أنه لم يكن يدرك هذه الحقيقة طوال الوقت ، بل عاش الجانب الأكبر من حياته واقعا في وهم « القطط والفئران » والشجاعة على الحاضرين والخبين على الغائبين .

الفصل الرابع

ظروف العائلة أم اختيار مقصود

تظل ردود الفعل على كتاب هيكل مصدرا مفيدا غاية الفائدة لتحليل أساليب التفكير المشوهة التي أصبحت سائدة في عالمنا العربى بعد سنوات طويلة من القمع . وتعمق دلالة هذا التشويه حين ندرك ان الكاتب الذى أثار ردود الفعل هذه ، لم يسلم هو ذاته ، فى كثير من الأحيان ، من الوقوع فى أخطاء نقاده نفسها ، بحيث يشعر المرء بأن المسألة فى حقيقتها لا ينبغى أن تناقش على مستوى أطراف النزاع ، ولا ينبغى أن تنحصر فى البحث عن المصيب والمخطئ بين هذه الأطراف ، وإنما المشكلة الحقيقية تكمن فى ذلك الجو الفكرى المزيف الذى طغى تأثيره على الجميع ولم يسلم منه أى طرف .

كان هيكل ، بغير شك ، مبالغا فى حديثه عن العوامل الفردية والعائلية التى تحكم فى نشأة أنور السادات ، وصبغت شخصيته فيما بعد بصبغتها المميزة . صحيح انه ، حين يكون الحكم فرديا مطلقا ، تلعب شخصية الحاكم وأهواؤه ، وربما نزواته ، دورا لا يستهان به ، يمكن أن ينعكس حتى على قراراته المصيرية . ولكن المشكلة هى ان العوامل الشخصية تقبل أشد التفسيرات تنوعا : فالابن الذى يضطهده أبوه أو يسيء معاملته ، مثلا ، يمكن

أن يتحول الى انسان منحرف يضطهد الآخرين عندما يكبر ، ويكون انحرافه هذا رد فعل على نشأته الأولى . ولكنه يمكن أيضا أن يكون انسانا حنوناً عطوفاً على الآخرين ، لا يريد لهم نفس المحنة التي مر هو ذاته بها ، ويكون هذا أيضا رد فعل على نشأته الأولى - وهكذا فإن الحديث عن العقد النفسية للطفولة وتأثيرها في الانسان البالغ ، هو دائماً حديث محفوف بالمخاطر ، يقبل أشد التأويلات تناقضاً .

خذ مثلاً فكرة الأصل المتواضع ، والحياة الصعبة التي كانت تحياها أسرة السادات . هذا شيء يقبل تفسيرات شديدة التنوع . فكم من زعيم أسدى لشعبه أعظم الخدمات ، وكان أصله المتواضع هو الحافز له على أن يفنى حياته من أجل الشعب الذي يشعر دائماً بانتمائه إليه . وإذا كان السادات قد أغرق نفسه في البذخ ، بصورة مبتذلة ، في حياته المتأخرة ، فإن هذا اختيار واع من جانبه ، وانتماء وانحياز منه الى طبقة محددة ، وليس مجرد عقدة نفسية عبرت عن نفسها بصورة عكسية . فلماذا لم تؤد عقدة الفقر بهوشى منه أو لومومباً مثلاً الى اختيار حياة القصور والاستراحات ؟ ألم يكن جمال عبد الناصر نفسه فقيراً (١) ؟ بل ان مثل هذا التفسير يمكن أن يستخدم ضد هيكل نفسه ، وقد أشار موسى صبرى بوضوح مقزز الى أصول هيكل العائلية ولمح الى ما يسميه : خوفه من اظهار أبيه في الأماكن العامة ، بل ان كاتباً قدم عملاً روائياً ومسرحياً مشهوراً تضمن اشارات مماثلة تتعلق بشخصية من شخصيات الرواية رأى كثير من النقاد انها ربما كانت تعبيراً عن شخصية هيكل نفسه (٢) .

(١) يلاحظ أن بعض ضحايا التأميمات ، في عهد عبد الناصر ، قد فسروا إجراءات التأميم والمصادرة نفسياً يوازى تفسير هيكل لسلوك السادات ، فذكروا انها تعبير عن حقد عبد الناصر على طبقة الأغنياء وحسده لها بسبب أصوله الفقيرة - وهكذا يؤدي السبب الواحد الى نتيجتين متناقضتين .
(٢) انظر : الرجل الذي فقد ظله لفتحي لحام .

هذه امثلة لا اذكرها الا لكي أنقدها وأبين أنها مبنية على فهم باطل من أساسه لعملية تفسير مسلك رجل الدولة . ومع ذلك فقد تورط هيكمل فيها ، خلال فصوله الأولى ، أكثر مما ينبغي . ولا شك أن نوعية الجمهور الذي وجه اليه الكتاب أصلا ، وهو الجمهور الأمريكي ، كانت مسئولة الى حد بعيد عن هذا التورط . فالأمريكيون مصابون بهوس العقد النفسية والتفسيرات السيكولوجية الرخيصة ، وهم ينفقون على العلاج النفسى ما يغطى ميزانيات عدة دول من العالم الثالث ، دون أن يجنوا من ذلك الا مزيدا من السلوك غير السوى . وهكذا خاطب هيكمل جمهوره الأمريكى باللغة التى تروق له ، ولكنها للأسف لغة لا تفسر شيئا ، بل تزيد الأمور تعقيدا .

خذ مثلا مشكلة اللون . لقد كان هيكمل - للانصاف - واضحا فى هذه المسألة ، فأكد ان السادات كان معقدا من لونه « بلا داع » . وفى كل مرة كان يكرر انه لم يكن هناك ما يدعو الى هذا التعقيد اللونى . ولكن مجرد الاشارة الى اللون كانت كفيلة بإثارة ردود فعل غاضبة لدى كثير من الناس . وكان من أطرف ردود الفعل هسذه ما كتبه مستشار سودانى احتج بشدة على ما ذكره هيكمل عن عقدة اللون عند السادات ، مؤكدا أن هذا ليس رأى الشعب المصرى فى الشعب السودانى ، الذى يحبه المصريون ويفخرون به ، وذاهبا الى أن هذه اساءة الى الشعب السودانى تمرقل مسيرة التكامل بين البلدين « فى ظل قيادة الرئيس نميرى » . ورأى المستشار فيما قاله هيكمل تفرقة عنصرية ، ومؤامرة مشتركة مع القذافى لمرقلة التكامل بين الشعبين . ولم ينس المستشار أن يشير الى أسماء عدد من الشخصيات المصرية المشهورة التى كانت من أب سودانى أو أم سودانية ، كمحمد نجيب وعبد الله النجومى وعلى عبد اللطيف ، ولم يمنعهم ذلك من دخول التاريخ (٣) . هذا رد فعل مبالغ فيه بغير شك ، وربما كان

(٣) المستشار أحمد الشريف (سودانى) : مقال بعنوان « متى كانت الجنسية

السودانية سبة ؟ » (الاخبار فى ٢٦/٤/١٩٨٣) .

طائفا ، نتج عن فهم قاصر لاشارة هيكل الى لون السادات ، ولكن الموضوع بأكمله ما كان ينبغي أن يثار ، لأن أخطاء الحكام ، وخاصة حين تكون فادحة ، أعقد من أن تفسر بمثل هذه العوامل .

ولكن لنتوقف وقفة أطول عند صفة أخرى أكدها هيكل بالحاح ، وأثارت ضده موجة من ردود الفعل العنيفة ، وأعنى بها نبشة السادات الفقيرة ، التي أدت ، وفقا لتفسيرات هيكل النفسية ، الى رد فعل في الاتجاه العكسي لدى السادات عندما أتاحت له فرص الاثراء . ولما كان هدفنا الدائم هو التوصل الى أنماط الفكر التي أصبحت سائدة في أيامنا هذه ، والتي تشهد على الانهيار العقلي المميز لعهود القهر والكبت ، فسوف نبدأ بضرب أمثلة لردود الفعل التي لا يكاد يتصورها العقل ، على ما قاله هيكل عن فقر السادات في حديثه : فالكاتب الذي اقتبسنا عنه من قبل ، والذي تحدث بلسان السادات ، ردا على هيكل ، دون أن يذكر اسمه ، يقول : « صدقوا فيما يقولون » نشأتى عقدتني .

ذقت الفقر وقسوته فحاولت أن أجنب غيري تذوق مرارته .

تملكتني عقدة الرخاء ، وكانت أغلى أمانى أن يوفقني الله الى حماية من عنده لكل مصرى ومصرية من مواجهة لا ترحم مع شيخوخة أو عجز أو عوز ، وأن يقدرني على طلب الطعام من الصحاري لكل ثم ، وحق العلاج والدواء لكل عليل ، وتوفير البيت لكل عروس ، ويشهد الله والشعب الوفي الذي لا ينسى اننى سعت وحاولت قدر طاقتي » .

ويستنكر زعيم اليمنى سابق على هيكل أنه يعير السادات بفقره ، فيذكر القراء بأن الله قد اختار أنبياءه من الفقراء وقال لرسوله : فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث . ثم يعلق الزعيم السابق المشهور قائلا : « ولستم نسمع أن السادات قهر يتيما ، ولا نهر سائلا ، وكان بنعمة ربه يحدث » (٤) .

(٤) انظر مقال الدكتور عبد الرحمن البيضاني في الامرام ، ١٩٨٣/٤/٢٤

والنموذج الثالث شهادة سريعة لموسى صبرى ، يكرر فيها قصة عن السادات الذى أصر على أن يقرأ بنفسه شكوى رجل فقير بعد أن حاول سكرتيه الخاص أن يعالج الموضوع دون تدخل من الرئيس ، ثم قال السادات لهذا السكرتير : « أنت يافوزى لم تعان الفقر كما عانيت » (٥) .

هذه الأمثلة تكفى للدلالة على التدهور الحلقى والفكرى الذى يمكن أن يصل اليه الاعلام فى ظل القمع . فكتائب العبارة الاولى ، على سبيل المثال ، لا يخجل من الحديث عن رحمة الرئيس بالفقراء ، ويتوهم أن الوعي لدى الجماهير قد انعدم الى حد نسيان مجموعة المليونيرات التى أحاطت بالرئيس السابق وصاهرته ، وتلك التى أعطيت لها كل الفرص لنهب أموال الشعب فى ظل الانفتاح . ولا يتورع الكاتب عن الحديث عن شقة لكل عروس فى الوقت الذى تشهد به تجربة الناس اليومية أن أسعار المساكن الخيالية وصلت الى أرقام لم تعد تقدر عليها الا عروس واحدة بين كل ألف عروس . وهو لا يستحي من الحديث عن الطعام لكل فم وسط الغلاء الطاحن ، ولا عن الدواء لكل مريض وسط الإهمال الكاسح لعلاج الشعب والارتفاع الصاروخى لأسعار العلاج الخاص . فماذا يمكن أن يقول العقل والمنطق حين تصل الصفاقة بالاعلام الى هذا الحد ؟

ان من العبث أن يسترسل المرء فى مناقشة هذه الشهادات الفجة ، التى لا تركز الا على مغالطات مقضوحة ، وما استشهادنا بها هاهنا الا لكى نقدم نماذج للمستوى الذى أصبحت تناقش به أمور المجتمع المصرية فى الوقت الراهن . ولكن الأهم من ذلك هو أن نتساءل : هل يكفى التعليل الذى قدمه هيكمل ، والذى يركز على فكرة عقدة الفقر ، لكى يفسر البذخ المفرط الذى تميزت به حياة السادات ، وحياة المحيطين به من أقارب وأصحاب ؟ ان عقدة الفقر ، كما قلنا ، يمكن أن تتجه اتجاه عكسيا ، فتولد لدى

(٥) مقالة موسى صبرى فى الاخبار ، ١٩٨٣/٤/١٩

الحاكم تعاطفا حقيقيا مع الفقراء ، وسعيا جادا الى استئصال الأسباب المؤدية اليه ، فلماذا اذن كان الاتجسأ ، فى حالة السادات ، الى التمتع المفرط بنعم الحياة ، والاندماج التام بأكبر أنرياء المجتمع ؟

فى رأى أن المسألة اختيار واع ومقصود لنسط معين من أنماط الحياة ، ولفتة معينة فى المجتمع هى الأقدر على اشباع احتياجات نمط الحياة المطلوب . فالتفسير هنا اجتماعى واقتصادى قبل أن يكون نفسيا .

والدليل على صحة الرأى الذى تقدمه هو ان السادات حارب فكرة الفقر ذاتها ، بطريقة متعمدة ، أملا فى الغائها من القاموس ، وبذل جهودا واعية لاقامة « فلسفة » خاصة به ، لا مكان فيها لمفهوم الفقر ، وبذلك تكتمل عملية تغييب الوعى لدى الجماهير التى تشعر بوطأة الفقر فى حياتها اليومية حتى لو لم تفهم الأسباب الحقيقية المؤدية اليه . ففى معظم خطب السادات وأحاديثه كانت هناك دعوة متكررة الى الغباء الحقد ، والاستعاضة عنه بالحلب والتآلف والانسجام فى ظل مجتمع « الأسرة الواحدة » الذى يرعاه ويسهر عليه « كبير العائلة » . والحقد هنا ليس الا تطلع الفقراء الى نمط حياة الأغنياء . وهكذا تقوم هذه الفلسفة المتهالكة على اذابة الوعى بالفقر ، والغاء الاحساس بالفوارق الصارخة بين الطبقات ، بدلا من أن تقوم على الغاء هذه الفوارق ذاتها . ولا جدال فى أن الالحاح على الناس ليل نهار كى يتخلوا عن الحقد ويحبوا بعضهم بعضا ، فى اطار مجتمع يسوده كل هذا القدر من التفاوت فى الثروات وفى كافة فرص الحياة ، انما هو محاولة واعية لتزييف عقول الناس بحيث تنسى واقعها الأليم ذاته ، وليس على الاطلاق مجرد رد فعل نفسى من جانب الحاكم على نشأته الفقيرة .

ولعل الدليل الأوضح من هذا كله هو موقف السادات من أحداث يناير ١٩٧٧ . فهذه الأحداث كانت « ثورة فقراء » بمعنى

الكلمة • والامر اللافت للنظر حتما ، فى موقف السادات ازاءها ، ليس أسلوب القمع العنيف الذى اتبعه لاحادها ، فهذا هو المسلك المنتظر من أى حاكم فى مثل موقفه • ولكن ما ينفرد به السادات هو أنه حاول أن يلغى طبيعة الحدث ذاته ، ويحذف منه عنصره الأساسى ، عنصر الفقر ، حذفاً كاملاً • وهكذا ظل السادات شهوراً طويلة ، بعد يناير ، يوجه الى كل من يناقشه أو يحاوره سؤالاً لا يتغير : انتفاضة شعبية أم انتفاضة حرامية ؟ وتبعاً للإجابة عن هذا السؤال يتحدد موقف كل شخص ، ان كان مع السلطة أو ضدها ، من أنصار الانفتاح أو خصومه ، من الطبقة العليا الجديدة أم من الطبقات الدنيا • كان اطلاق اسم « الحرامية » على تلك الملايين التى خرجت فى مظاهرات تلقائية عارمة ضد رفع الأسعار ، هو فى ذاته اختيار طبقي لا تخطئه أى عين • وبغض النظر عن أن وجود كل هذا العدد الهائل من « الحرامية » (لو صحت التسمية) هو فى ذاته دليل على أن هناك خللاً أساسياً فى المجتمع ، فإن الشيء الذى ينطوى على دلالة عميقة هو ان الاختلاف حول الاسم كان يعكس محاولة من الحاكم لانكار وجود الفقر فى المجتمع أصلاً • فالمتظاهرون لم يخرجوا لأنهم فقراء بل لأنهم « حرامية » • هذه قمة التوحيد مسخ الطبقة الثرية التى أصبحت تحكم مصر وتنهب مواردها •• ذلك التوحيد الذى يصل الى حد الغاء كلمة الفقر من القاموس ، وكان حذف لفظ معين واحلال لفظ آخر محله سوف يستأصل الظاهرة نفسها من جذورها !

كانت تلك ، بطبيعة الحال ، واحدة من الحالات التى يقسوم فيها اختيار لكلمة مخففة بالتغطية على حقيقة أليمة مريرة ، تلك الحالات التى تكتشف فيها أجهزة الاعلام سحر « الكلمة » ، فتتلاعب بها وهى واثقة من أن الكلمة المزيفة ، اذا ما تكررت استخداماً الى الحد الكافى ، تستطيع أن تغير طبيعة الظاهرة التى نتحدث عنها وتشكلها بالطريقة التى تحقق أهداف الحاكم – ويدخل فى هذا الاطار استخدام أجهزة الاعلام المتكررة للفظ « النكسة »

بدلا من الهزيمة الثقيلة فى يونيو ١٩٦٧ ، وحديثها الدائم عن « سيادة القانون » ، بمعنى وضع قوانين مزيفة توافق عليها الأغلبية الآلية فى المجالس النيابية ثم ضمان « السيادة » لها ، واستخدامها تعبير « تحريك الأسعار » بدلا من الغلاء الفاحش ، وهلم جرا .

على أن الأمر اللافت للنظر هو ذلك الافتقار العجيب الى سياسة محددة المعالم ، قابلة للتنفيذ ، لمواجهة ظاهرة الفقر فى مصر . فبدلا من التصدى للظاهرة بأساليب مخططة ومدروسة ، كان الحاكم يتحدث فى كل مناسبة ، عن أمنيته الغالية ، وهى أن يكون لكل مصرى « فيلا وسيارة » خاصة به . ومثل هذا الحديث ليس مجرد تخدير لحواس الناس وعقولهم فحسب ، بل هو أيضا دليل على أن فكرة المواجهة العلمية للمشكلات غير موجودة فى ذهنه أصلا : ذلك لأن بلدا كمصر لا يحتمل ببساطة ، أن يكون لكل مواطن فيه « فيلا وسيارة » ، حتى لو كان نظام الحكم فيه وطنيا مخلصا بلا أى شائبة . والنظرة العلمية الى مشكلة كهذه هى التى تحدد الأهداف وفقا للامكانات الموجودة ، وتكتفى بالحد الأدنى للمعيشة الآدمية بدلا من أن تفرق الناس فى أوهام يستحيل تحقيقها . ومن المؤكد أن المفارقة لابد أن تكون قاسية بين حلم « الفيلا والسيارة » ، حين يشيعه بين الناس أكبر مسئول فى الدولة ، وبين الأسعار الفلكية للمساكن الجديدة ، ووسائل المواصلات اللاإنسانية التى لا تملك الأغلبية الصامتة غيرها . وفى مثل هذه الحالات ، يكون التقدير الواقعى للأهداف أقدر بكثير على تهدئة مشاعر الناس وبعث الأمل فى نفوسهم من أى تعبير تخديرى حالم .

المهم فى الأمر أن المحاولات الواعية المتعمدة للتغطية على حقيقة الفقر الصارخة ، ولتعليل الناس بآمال زائفة ، لا يمكن أن تكون مجرد تعبير عن « عقدة فقر » متأصلة منذ النشأة الأولى ، وانما هى تعبير عن اختيار وانحياز الى جانب الأقلية المستغلة ضد

الأكثريّة المطحونة من وطأة الاستغلال . انها فلسفة متكاملة ، دبرت وخططت بعناية وبخبط مرسومة ، وليست مجرد رد فعل سيكولوجي على ظروف الفقر التي سادت خلال فترة النشأة الأولى . ومن هنا يبدو ان الخطأ الذي ارتكبه هيكل في هذا الجزء لا يتل فداحة عن ذلك الذي ارتكبه خصومه ممن تحمسوا للدفاع عن السادات ، سواء منهم ذلك الذي أكد ان فقر السادات جعله يسعى حثيثا لاستئصال كل مظاهر الفقر في بلاده ، أو ذلك الذي ذرّف دموع التماسيح وهو يتحدث عن معاناة رئيسه من الفقر في حديثه ، أو ذلك الذي شهد - بكل أمانة وإخلاص - بأن السادات لم يقهر يتيما ، ولم ينهر سائلا ، وكان بنعمة ربه يحدث ا

ان الاهتمام الزائد بعوامل التنشئة والتربية والبيئة الأولى ، في حياة السياسيين ، يمكن أن يؤدي الى عكس الهدف المقصود منه . ففي حالة السادات كان من الممكن - كما قلنا من قبل - أن تفسر نشأته المتواضعة على نحو يؤكد تعاطفه مع الفقراء ، كما فعلت أجهزة الاعلام المؤيدة له بالفعل . ولو قيل ان النشأة المتواضعة ، وليس الاختيار الأصيل ، هي التي أدت به الى ارتكاب أخطائه ، فان مثل هذا التعليل يعنى التماس شيء من العذر للحاكم ، لأنه سيكون عندئذ « ضحية » ظروفه العائلية القاسية ، وربما اقتنع البعض بأنه لم يكن يملك أن يفعل الا ما فعل . وهذا كله هروب من المسؤولية الحقيقية : مسؤولية الاختيار الواعي ، المخطط ، المرسوم ، الذي تخلى فيه السادات عن طبقته الأصلية وانحاز بكل قوة الى صف أصحاب الملايين الجدد .

ومع ذلك فان هيكل يبرز هذا العامل الى حد تصوير المسألة كما لو كانت مسألة انسان مصاب بمجموعة من العقد النفسية التي لم يكن يستطيع التخلص من تأثيرها طوال حياته . واذا قال البعض ، دفاعا عن هيكل ، انه لم يفعل ذلك الا في الفصول الأولى ، بينما خصص الفصول التالية للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والفكرية الموضوعية ، فان هيكل نفسه يعود فيؤكد التهمة الموجهة

اليه حين يقول في الصفحات الأخيرة من كتابه ، بعد أن عرض ملجمته الطويلة عن السادات ، وأراد أن يلخص في النهاية ما انتهى اليه من نتائج : « يمكن الآن بأثر رجعي أن يقال ان غلطة السادات الكبرى تمثلت في توضيحه بالأهداف الاستراتيجية لمصر من أجل مناورات تكتيكية كان مشكوكا منذ البداية في قيمتها . ويمكن أن يقال - وبحق - أن حرب أكتوبر كانت فرصته الكبرى ، بل كانت فرصة لم تتح لحاكم مصرى قبله في تاريخ مصر الحديث ، بما فى ذلك محمد على وجمال عبد الناصر ، ولكنه ألقى بكل شيء فى الهواء . وربما كانت المسئولية تقع على نوع الحياة التى عاشها ، أو ربما كانت تقع على نقص حصيلته من التعليم والعلم ، وكلها عوامل تجعل من الظلم اصدار حكم قاطع عليه ، » .

هنا ، وفى نهاية الكتاب ، يعتمد هيكل الى استخدام التعليقات الشخصية ، مثل نوع الحياة التى عاشها الحاكم ، أو نقص تعليمه ، لكى يفسر بها أخطر الأحداث - وكان السادات لو كان أكثر علما لتغيرت سياساته جميعا . أما المصالح والانتماات والارتباطات ، فلا مكان لها فى تعليقات هيكل . فظروف الحاكم ، من حيث هو فرد معين نشأ فى أوضاع معينة ، هى التى تفسر كل شيء . وأن المرء ليعجب كيف يقبل مفكر ومحلل كبير ، كان أقرب المقربين الى حكام أكبر بلد عربى خلال ربع قرن من الزمان على الأقل ، أن يقدم مثل هذا التعليل الجزئى الضيق لأحداث سياسية كبرى ، ويتجاهل عوامل أساسية مثل اختيار الحاكم أن ينتمى الى الشريحة العليا للمجتمع ويربط مصيره بها ، ومثل اتباعه أسلوبا للحكم غير مستند الى ارادة شعبية تعبر عن نفسها تعبيرا حرا سليما . فهل يكون من المستغرب بعد ذلك أن تكون النتيجة التى يصل اليها تحليله هى أن « من الظلم اصدار حكم قاطع عليه » ؟

وكل ما أستطيع أن أقوله من تفسير لهذا القصور الشديد فى

التحليل ، هو أن من اعتادوا الاقتراب الشديد من حكام أفراد بعيدين عن الديمقراطية ، ومن ألفوا رؤية أخطر القرارات تصدر بارادة فردية مطلقة ، لن يستطيعوا أن يخرجوا في تعليماتهم وتفسيراتهم عن اطار الظروف الشخصية لأصحاب السلطان .

ان المناقشة الطويلة التي قمنا بها ، على مدى هذا الفصل والفصول السابقة ، لردود الفعل على ما كتبه هيكل ، انما كانت تستهدف قبل كل شيء ، اظهار عناصر الضعف والتفكك في الجو الفكري الذي عاش في ظله هيكل وخصومه معا . فالجميع يقعون في أخطاء متشابهة ، وان كانت هذه الأخطاء مكشوفة مفصولة في بعض الحالات ، وغير ظاهرة للعيان في حالات أخرى .

وأبرز هذه الأخطاء هو الخلط بين المسائل الشخصية والعوامل الموضوعية في تحليل الظواهر السياسية واصدار الأحكام على تصرفات رجال الدولة . هذا الخطأ واضح كالشمس في استنكار السادانيين لعدم الوفاء وانتهاك الحرمات ونش القبور ، ولكنه ظاهر أيضا في تأكيدات هيكل . في مواضع كثيرة من كتاباته ، بأن نقد الحكماء بعد موتهم ليس من الشجاعة في شيء . ان المنهج الفكري واحد ، وان كان يطبق في حالة هيكل - كما يحدث دائما - بطريقة أكثر ذكاء وخفاء .

ومن شأن اتباع هذا المنهج أن يبدو الصراع حول المسائل السياسية الكبرى كما لو كان ثارا بين أشخاص . وهكذا يقول البعض ، تأييدا لموقف هيكل ضد مهاجميه : أين كنتم عندما كان عبد الناصر يشتم ؟ فيرد البعض الآخر ممن ينقد حملة هيكل على السادات : ولماذا هاجمت دكتاتورية السادات وسكت عن دكتاتورية عبد الناصر ؟ ويظل كل من الطرفين حريصا ، قبل كل شيء ، على ألا يوجه اللوم الى الرئيس الذي يدافع عنه ويترك الآخر ، أما القضية الأصلية ، وهي أن حق النقد ينبغي أن يكون مباحا للجميع ، وفي عهد كل الحكماء ، سواء في حياتهم أو بعد

معاتهم ، فلم يدافع عنها أحد .
وحيث تنور العواصف ضد هيكل من صحفيين كانوا زملاء
له ، ثم اندمجوا في العهد الساداتي . يعلق على ذلك بأسف قائلاً :
« ليس بينهم من لم أقف معه في أحلك الظروف ولم أفعل كل
ما في وسعي لمساعدته ، ولولا أنني لا أريد أن أؤمن على أحد ،
لذكرتهم لك واحدا واحدا وبالإسم ورويت ما قدمته لهم » (٦) .
أنه هنا يلخص الموقف كله : فهو يتصور أنه بمثل هذه
الإشارات إلى الخدمات الشخصية التي أسداها يرد على نقاده ،
وينسى أن القضايا المثارة أخطر بكثير من منطق الخدمات
والمساعدات الفردية ، ويثبت أنه لا يختلف عن مجاميعه ممن
خضعوا لمطبق الحكم المطلق وعجزوا عن تفسير الظواهر العامة
إلا من خلال سلوك الأفراد .

(٦) حديث مع صلاح عيسى في « الأهالي » بتاريخ ٢٧/٤/١٩٨٣ .

الفصل الخامس

التاريخ والحقيقة الضائعة

من سمات عهود القمع الفكرى وكبت الرأى المعارض انهما تنشيء أجيالا لا تعرف التاريخ الا فى صورة مشوهة . فحين تكون وجهات النظر المتباينة متاحة يستطيع العقل الناضج أن يكون صورة صحيحة عن أحداث التاريخ وتياراته ، ويصدر أحكاما سليمة على السياسات التى تحكمته فى صياغته . أما حين يسرى الحظر الكامل على وجهيات النظر التى تخالف موقف السلطة الحاكمة ، فكيف نتوقع من أى جيل لم يتعرض الا لوجهية النظر هذه ، أن يفهم أحداث التاريخ ويصدر حكما صحيحا عليها ؟

وأستطيع أن أقول ان الأجيال التى تقل أعمارها عن خمسة وأربعين عاما ، وهى بالطبع تشكل الأغلبية فى العالم العربى المعاصر ، لا تعرف عن تاريخ ما قبل ثورة ١٩٥٢ سوى معلومات غير موضوعية وغير منصفة . هذا بالطبع لا يمنع من أن يكون ثمة أفراد هنا وهناك بذلوا جهودا مضنية فى القراءة والاطلاع والبحث عن الحقائق من مصادرها الأصلية ، بحيث لا يسرى عليهم هذا الحكم ، ولكن مثل هذه الجهود لا تتاح الا للقلّة القليلة ، بحيث يمكن القول أن الجيل بوجه عام لم يعد يعرف ذلك التاريخ الا من خلال وجهة نظر معادية له ، ومن ثم فقد حرصت كل الحرص على

تشويبه •

كانت تجربة مصر مع الديمقراطية تجربة فريدة بحق • فمنذ القرن التاسع عشر كانت هناك مجالس نيابية ، حاول حكام مصر في ذلك الحين ، وهم أتراك أو أنصساف أتراك ، أن يستغلوها لحسابهم ، وجندوا بالفعل عددا من الأعوان والأذئاب ، ولكن كان هناك دائما من يتصدون للقهر والطفيان ، وشهدت هذه المجالس مواقف مجيدة كان نواب الشعب فيها يدافعون عن الدستور ضد سلطة الحاكم ، ويؤكدون سيادة الشعب ويحمون حقوقه • كانت تجربة ديمقراطية مبكرة ، سبقت نظيراتها في كثير من السلاسل الأوروبية ، وكانت شهادة بالغة الدلالة على أن الشعب يستطيع أن يجنى من الديمقراطية مكاسب هامة ، مهما كانت قوة التيارات التي تقف في وجه تطوره •

ولقد كانت هذه التيارات قوية بغير شك • فقد كان هناك القصر (الحديوى فى البدء ، ثم الملوك بعد ذلك) ، وكان هناك الانجليز ، وكان هناك أعوان يستطيع الحكام شراءهم بالوعود والمصالح ، ولم يكن الطريق بالتالى سهلا على الإطلاق • ومع ذلك فقد كان الشعب يؤكد حقوقه ويدافع عن حرياته فى كل فرصة تتاح له •

وخين قامت ثورة ١٩١٩ فى مصر ، لم تكن الثورة التى عمت البلاد من أقصاها الى أقصاها ، والتى شاركت فيها الطبقات الدنيا والوسطى وكثير من شرائح الطبقة العليا ، ولم تعرف تفرقة بين مسلم وقبطى فى الكفاح من أجل الوطن - لم تكن هذه الثورة كفاحا ضد الأجنبى المحتل فحسب ، بل كانت فى الوقت ذاته جهادا من أجل تأكيد الديمقراطية والحقوق الدستورية للشعب ، وكان من أبرز مظاهر النضج السياسى فى ذلك الحين وجود وعى كامل بأن الكفاح من أجل الاستقلال والكفاح من أجل الديمقراطية لا ينفصلان

وخلال الفترة الواقعة بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، تميزت الحياة

السياسية بطابع الصراع العنيف ، الذى تحدثت معاه بوضوح تام ، بين تيارين : تيار رجعى يمثل القصر والانجليز وأعوانهما ، وتيار شعبى مستتير يمثل الوفد . ولم يكن الوفد حزبا متاليا ، بل كانت فى داخله تيارات متعارضة ، كما كان يضم شرائح متباينة من المجتمع الى الحد الذى يجعله أقرب ما يكون الى صيغة « تحالف قوى الشعب » ، تلك الصيغة التى بذلت فيما بعد محاولات لتطبيقها فى اطار غير ديمقراطى ، فلم تلق نجاحا .

ومع ذلك كان فى الوفد ميزتان أساسيتان : الأولى انه كان على وعى تام بأن مصدر قوته هو التأييد الشعبى الساحق ، ومن ثم فقد كان فى أوقات الازمات يقف بصلافة فى الدفاع عن الدستور وعن حقوق الشعب التى هى رصيده الأكبر . والثانية هى مرونته وقدرته على تطوير نفسه وفقا للأحداث ، مما أتاح له ان يصمد صمودا رائعا ، طوال الفترة الواقعة بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، على الرغم من كل حملات التشويه والتشنيع التى كانت تشن ضده بانتظام . وبفضل هاتين الميزتين استطاع الوفد ان يكتسح أحزاب الأقلية ، التى خلقها القصر والانجليز لمعاربته ، فى كل الانتخابات تجرى بقدر معقول من الحرية . وكان آخر انتصاراته ، وأكثرها مدعاة للدهشة فى نظر خصومه ، هو فوزه الساحق فى الانتخابات التى أجريت فى أواخر ١٩٤٩ ، بعد فترة بدا فيها لحصومه فى الداخل والخارج انهم افلحوا فى تشويه صورته عن طريق اختلاق تفسير كاذب لأحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وعن طريق انشقاق مكرم عبيد ونشره « كتابا أسود » ضد الوفد ، وعن طريق انشاء دار « أخبار اليوم » الصحفية خصيصا لخدمة أهداف الملك والانجليز والتخصص فى تشويه صورة الوفد .

اننا لا نقدم هنا استطرادا خارجا عن الموضوع ، ولا نود أن نقطع حبل الأحداث التى أثارها كتاب هيكل أو التى ظهر كرد فعل عليها ، إذ أن هذه الملاحظات تدخل فى صميم الموضوع ، وهى فى رأينا تكمن فى قلب المأساة الفكرية والسياسية التى تعانى

منها مصر والامة العربية فى الوقت الراهن . فهناك كما قلنا جيل
يجهل هذه الأحداث أو لا يعرفها الا من خلال ما كتبه عنها
خصومها منذ عام ١٩٥٢ . ومن حق هذا الجيل على من شهدوا
هذه الفترة بوعى وفهم ان يدلوا بشهادتهم ، وسواء اقتنعوا بهذه
الشهادة أم لم يقتنعوا ، فلينظروا اليها على انها مادة خام
تساعدهم على المزيد من التحليل والتفكير .

كانت الفترة التى تولى فيها الوفد السلطة ، بعد انتصاره
الساحق فى آخر انتخابات أجريت قبل الثورة ، وآخر انتخابات
حرة فى تاريخ مصر ، فترة فريدة بحق فى تاريخ هذه المنطقة كلها .
ومن المؤسف حقا أن أحداث عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ لم تنل حظها
من الدراسة والتحليل ، مع أن هذه الفترة بالذات تلقى الضوء على
الكثير جدا من التطورات التالية . ولن يسمح لنا المجال ها هنا ،
ولا الحرص على الاحتفاظ بتسلسل المناقشة وترابطها ، بأن نتحدث
بأى شئ من التفصيل عن هذه الفترة الحاسمة التى تفتوى على
مفاتيح تفسر أحداثا كثيرة. وقعت فيما بعد ، ولكن حسبنا أن نشر
فى عجالة الى الخطوط العريضة لأحداث هاتين السنتين الحاسمتين ،
اللتين بدأتا عند استدارة القرن العشرين الى نصفه الثانى - وكانتا
نقطة تحول أساسية بين التاريخ السابق والتاريخ اللاحق .

فى هاتين السنتين الحاسمتين وقعت الأحداث الكبرى الآتية :
١ - تركت الحرية للصحافة لكى تهاجم الملك - أقوى سلطة فى
البلد ، بارتكازه على قوتى الانجليز والجيش - واتخذ الهجوم
فى بعض الأحيان طابع الفضح المباشر لتصرفات الملك
واسرته . وكان مما ساعد على ضمان هذه الحرية ، معركة
مشهورة نشبت فى ذلك الحين حول تشريعات مقيدة للصحافة
(وهى تشريعات لا تساوى شيئا اذا ما قهست بالقيود الفعلية
التي أصبحت تمارس ضد حرية الصحافة بعد عام ١٩٥٢) ،
واستطاع فيها الضغط الشعبى ، ممثلا فى حملة صحفية
رائعة ضد التشريعات الجديدة ، ان ينتصر فى النهاية ،

فسحبت التشريعات وتأكدت حرية الصحافة .
 ٢ - قامت الحكومة ، استجابة لمطالبات شعبية واسعة النطاق ، أيضا ، بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع الانجليز ، وبدأ عهد الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية في منطقة القنساء .
 وبقدر ما كانت حركة الكفاح المسلح ارتجالية في البداية ، فإنها كانت تحمل للدول الغربية الطامعة في المنطقة ، وعلى رأسها القوة الامبريالية الجديدة (أمريكا) ، نذرا خطيرة الى أبعد حد : هي تكوين نواة لجيش شعبي مدرب على مكافحة الاستعمار ، وهو أكبر خطر تخشاه هذه القوى الأجنبية ، وخاصة اذا انتقلت عدواه فيما بعد الى الأقطار العربية الأخرى .

٣ - وضعت أسس راسخة لمبادئ العدالة الاجتماعية وديمقراطية الحكم ، فطبق مبدأ مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، واتسع نطاق القبول المجاني في الجامعة الى حد بعيد ، وطبق طه حسين ، حين كان وزيرا للتعليم ، مبدأ « التعليم كالماء والهواء » ، وكانت تلك هي البداية الحقيقية للتحول الاجتماعي ، ليس فقط في التعليم ، بل في فرص العمل وإدارة دفة المجتمع .

وهكذا كانت تلك التجربة الأخيرة لحكم الوفد هي ذروة التطور الديمقراطي الذي سارت فيه مصر طوال فترة لا تقل عن ثلاثة أرباع القرن . ومن اللافت للنظر أن هذه التجربة الرائعة كانت تتم في وجه عقبات هائلة ، ولم يكن طريقا سهلا أو معبدا على الإطلاق ، إذ كان هناك ملك مستبد يشعر بالخطر الذي يهدده من هذه التطورات ، ويتحين الفرص لاسقاط الحكومة التي ستؤدي سياستها حتما الى القضاء عليه ، وكان هناك احتلال بريطاني يريد أن يثبت أقدامه ويتعاون مع أعداء الحكومة الوطنية بكل الوسائل ، وكان هناك جيش يدين قاداته بالولاء المطلق للقصر . ومع كل هذه المعوقات تحقق الكثير ، وازداد الشعب التفافا حول

حكومته التي كانت تطور نفسها مع مطالب الجماهير ، وكانت
الأجنحة التقدمية فيها تكتسب مزيدا من الشعبية على حساب
الأجنحة الأكثر محافظة . ولم يكن امام الملك ، ازاء هذا التأييد
الشعبي الجارف لحكومته ، الا أن يلجأ الى التآمر من أجل ازاحة
الحكم الوطني ، فكان خريق القاهرة ، او الثورة المضادة التي
اثبتت ، بعد وقت قصير ، فشلها الكامل ، وكشفت النظام الملكي
في عجزه وتقلبه ووصوله الى طريق مسدود .

لماذا ، اذن ، نتحدث عن هذه الفترة ، وما علاقتها بموضوعنا
الأصلي ؟ السبب الأول هو أن هذه الفترة مجهولة لدى أبناء الجيل
الأوسط والأصغر في عالمنا العربي بوجه عام ، وفي مصر بوجه
خاص (١) . والكثير منهم لا يعرف عن هذا العهد الا مجموعة من
القوالب اللفظية التي تكرر ترديدها على أسماعهم الى حد أنهم أصبحوا
يأخذونها كما لو كانت من المسلمات المؤكدة ، كالحديث عن «الفساد»
في عهد ما قبل الثورة - وعن « فشل التجربة الحزبية » وعن « تخطيط
الأحزاب وسعيها الى مصالحها الضيقة » وعن « الازمة التي انتهت
اليها الديمقراطية الحزبية قبل الثورة » ، الى آخر هذه العبارات
التي يعرفها الجميع ، والتي تخفى في واقع الأمر أهم معالم تلك
التجربة الحسنة الى أبعد حد .

أما السبب الثاني فهو تلك المواقف غير المنصفة التي وقفها
هيكمل من تلك التجربة .

(١) يمكن القول ان عهد عبد الناصر بدوره أصبح تاريخا غير واضح المعالم
بالنسبة الى جيل الشباب الحالي ، من تقل أعمارهم عن الثلاثين . ذلك لأن العهد
الذي تلاه ، والذي كان بدوره حكما فرديا ، لم يتح الفرصة لهذا الجيل كما تكون
له رؤية تاريخية متوازنة لعهد عبد الناصر ، ومن هنا كان أبناء هذا الجيل اما
متحمسين للعهد الناصري الى درجة الرومانتيكية غير المرتبطة بالواقع ، واما متأثرين
بالدعايات المضادة التي تقدم للعهد صورة مشوهة غير واقعية ايضا . وهذا مثال
آخر للتشويه الذي يلحق بالتاريخ من جراء القمع وكبت الحريات وتحريف كل عهد
لتاريخ العهد السابق عليه .

كان هيكل ، منذ بداية نضجه الصحفي ، منتسبا الى مدرسة « أخبار اليوم » فى الصحافة ، وهى مدرسة لها سمات خاصة ، أهمها الولاء للقصر الملكى وتأييد أحزاب الأقلية والدعاية لكل قوة معادية لحزب الأغلبية الشعبية ، أعنى الوفد . وكان قطب هذه المدرسة ومعلمها الأكبر هو « محمد التابعى » ، وهو صحفى مخضرم كان يؤمن بأهمية الاثارة الصحفية عن طريق القضايع والجنس فى اجتذاب مزيد من القراء لاية جريدة . ومن الانصاف لهيكل أن نقول ان مجرد انتمائه ، خلال فترة هامة من حياته الصحفية ، الى دار « أخبار اليوم » لا يعنى بالضرورة أنه كان يتبنى جميع الأسس التى قامت عليها هذه الدار . ولكن من الانصاف للتاريخ ان نقول انه لم يبد أى نوع من التمرد الواضح عليها .

كانت هذه الدار التى أنشئت أساسا لتلطيف سمعة الوفد (وقد أثبتت انتخابات آخر سنة ١٩٤٩ انها فشلت فى ذلك فشلا ذريعا) ، هى التى مجدت مجموعة الشباب التى كان ينتمى إليها أنور السادات ، وعلى رأسها المغامر المشبه حسين توفيق ، وهكذا كانت تروى عنهم حكايات اسطورية ، وكان الغطاء الوطنى لعملياتهم هو العداء لقوات الاحتلال البريطانى ، ولكن الهدف الحقيقى منها هو تخليص القصر من أعدائه ، عن طريق التصفية الجسدية ، كما تشهد محاولات السادات المتكررة لاغتيال رمز الوطنية المصرية فى ذلك الحين ، مصطفى النحاس .

ولقد تضمن « خريف الغضب » تعبيرات كثيرة تحمل فى طياتها اعترافا بالدور الوطنى الذى قام به الوفد ، وبالفارق الشاسع ، فى هذه الناحية ، بين الوفد وأحزاب الأقلية الأخرى . فهو مثلا يتحدث عن « حزب الوفد المصرى الذى يقوده مصطفى النحاس والذى كان يمثل أغلبية الوطنيين فى مصر » . ويصدر حكما مثل : « أما الوفد - وبرغم كل محاولات تزوير الانتخابات - فقد ظل حزب الأغلبية » . يتمتع بتأييد شعبى لا يتنازع فيه أى حزب سياسى آخر . كما يشير بوضوح الى المعارك الدستورية

المجيدة التي خاضها الوفد ضد القصر ، ويؤكد ان « كفاح » السادات ضد الوفد ومحاولاته اغتيال مصطفى النحاس واشتراكه في مقتل أمين عثمان ، كل ذلك كان لصالح السراى ، وقد تحقق عن طريق علاقة السادات بالحرس الحديدي ، الذي يبدو انه كان يقوم بدور « عمالة مزدوجة » ، لصالح القصر فى الواقع ، ولصالح الوطنية المتطرفة فى الظاهر ، وكان مثل كثير من القوى شديدة التطرف ، عاملا لحساب قوى شديدة الرجعيه . بل ان هيكىل يتحدث عن « صحافة القصر » (ويقصد أخبار اليوم ، حيث كان يعمل) التى راحت تصور هؤلاء الشباب على أنهم أبطال شعبيون . . . وكل هذه كلمات صحيحة كل الصحة ، ومنصفة لتاريخ مصر فى تلك الفترة .

ولكن المفارقة تظهر حين يعود هيكىل فيصدر أحكاما مناقضة ، يبرر بها استيلاء الجيش على السلطة فى ١٩٥٢ ، فيقول : « فى ذلك المناخ (الأربعينات) بدت السياسات المصرية التقليدية القائمة على المناورة والتوازن بين الانجليز والقصر والوفد - بدت شيئا فأت أوانه لأنه يفقد صلته بالحقائق الجديدة يوما بعد يوم . كان لا بد من تغيير ، ولم تكن هناك فائدة ترجى من انتظار التغيير بواسطة حزب سياسى قديم أو جديد ، فلقد كان التركيب الطبقي فى مصر لا يزال فى حالة سيولة ، الأمر الذى يمنع ظهور قاعدة اجتماعية صلبة يقوم عليها تنظيم سياسى حقيقى ويزدهر . وهكذا فانه حين جاء التغيير ، كان مصدره هو القوة الوحيدة التى تمثل ارادة الاستمرار من ناحية ، وتملك قدرة العمل من ناحية أخرى - الجيش » .

هنا يعود هيكىل القديم ، هيكىل الخمسينات ، الى الكلام ، على الرغم من أنه كان يكتب فى الثمانينات . فمن قال ان السياسة المصرية قبل الثورة قامت على المناورة والتوازن بين الانجليز والقصر والوفد ؟ لقد كانت تقوم ، كما تدل عبارات هيكىل نفسه التى اقتبسناها من قبل ، على صراع واضح المعالم بين الشعب ، مثلاً

في الوفد من جهة ، والقصر والانجليز وأحزاب الاقلية من جهة أخرى . كان صراعا حول قضايا متبلورة تماما ، القضية الوطنية - الديمقراطية - حكم الدستور - توفير المطالب الشعبية . وعلى العكس من ذلك يمكن القول ان أول ما حرصت عليه ثورة ٢٣ يوليو كان اسكات الصراع ، السدى يرمز له اعدام اثنين من العمال (خميس والبقرى) بالتهمة التقليدية (الشيوعية) في الأيام الأولى للثورة ، ثم ظهور مختلف التنظيمات القائمة على فكرة التوازن ، لا الصراع ، وأولها هيئة التحرير .

وهكذا يتحدث هيكل حيناً بطريقة تدل على أنه أدرك حقيقة القوى المتفاعلة في تلك الفترة المظلمة من تاريخ مصر ، ولكنه سرعان ما يعود الى موقفه التقليدي ، ذلك الموقف الذى وقفته ثورة يوليو منذ البداية ، وأعنى به وضع الأحزاب جميعا فى سلة واحدة وكأنها كلها خانت وفشلت وتنكرت للحركة الوطنية ، ثم الترويج لتلك الأسطورة التى لم يكن لها أى أساس من الواقع أو التاريخ ، وأعنى بها انه « لم تكن هناك فائدة ترجى من أن يأتى التغيير من حزب سياسى » ، تلك الأسطورة التى تريد أن تسدل ستارا من النسيان على تجربة ديمقراطية عظيمة ، كانت تبشر بتطورات وتصحيحات هائلة لمسارها ، لو كتب لها البقاء بعد اذاعة العقبات التى كانت تعرقل مسيرتها حيناً وتبطئ حركتها حيناً آخر .

من أجل هذا يقدم هيكل تبريرات لمجموعة الاجراءات التى أدت الى القضاء على التجربة الحزبية فى مصر ، وهى اجراءات تكررت ، مع اختلاف فى التفاصيل ، فى كثير من الأقطار العربية الأخرى حين قامت فيها حركات عسكرية مماثلة . وهكذا يذهب هيكل الى أن الشرعية التقليدية فى بلاد العالم الثالث لها أساس قبلى أو دينى ، وحين تحاول أن تنتقل فى العالم الثالث الى شرعية ذات أساس دستورى وقانونى ، تستند فى عملية الانتقال هذه الى ضرورات الاستمرار ، وتمثلها « البروقراطية » بما فيها القوات

المسلحة ، وكذلك الى شخصية الزعيم .
ولست أدري على أى بلد من بلاد لعالم الثالث ينطبق هذا
الكلام ، لأن عمليات الانتقال التى تركز على القوات المسلحة
وعلى شخصية الزعيم لا تمثل فى أية حال من الحالات تحولا نحو
الشرعية الدستورية والقانونية . ولكن ما أعلمه حق العلم هو أن
هذا الكلام حين يقال عن مصر بالذات ، يكون عدوانا صارخا على
الحقيقة والتاريخ ، فقد كانت فى مصر شرعية دستورية قائمة
بالفعل ، وكانت تكافح ببطولة من أجل تطهير نفسها من القوى
المعادية للدستور . وليس صحيحا أن حركة الجيش ، فى مصر أو
غيرها ، كانت محاولة للانتقال من شرعية تقليدية الى شرعية
دستورية ، بل ان العكس هو الصحيح : إذ كانت الحركة فى
أساسها انتقالا من تجربة ناضجة فى الشرعية الدستورية الى نمط
فى الحكم لا يكتث كثيرا بمعنى الشرعية ، ولا يعترف بالدستور
الا على الورق .

وبمثل هذه الفلسفة المضللة تم تبرير كافة الاجراءات التى
اتخذت فى السنتين الأوليين للثورة ، من أجل التضييق على
الأحزاب (وكان المقصود بها واقعا حزب الوفد وحده) ، ثم فرض
شروط صعبة التحقيق عليها ، ثم الادعاء بأنها لم تتمكن من تلبية
هذه الشروط ، ثم يتكرر المسلسل المعتاد ، الذى أصبح
« نموذجا » تحتذى الانقلابات العسكرية فى كافة أرجاء العالم
الثالث : إيقاف المسار الطبيعى للدستور ، وإلغاء الأحزاب
والانتخابات ، والعمل بموجب قرارات أو مراسيم ، مدة ثلاثة
أشهر ، ثم ستة أشهر ، ثم سنوات وسنوات . وفى كل حالة يجد
النظام من يبرر له اجراءاته عن طريق « فلاسفة » قسادين على
إقناع الناس ، أو إرغامهم على الاقتناع ، بأنهم يعيشون فى ظل
شرعية من نوع جديد ، شرعية « ثورية » تقتضاه الى جانبها
المفاهيم « العتيقة » للشرعية .

هكذا فعل هيكل ، وهكذا فعل كثيرون غيره من منظرى الحكم

التسلطى اللاديمقراطى ، ولكن حساب التاريخ لهيكل منيكون أشده
عسرا ، لأنه كان أكثر من الآخرين ذكاء ووعيا ، ولأنه أدرك حقائق
الأوضاع فى لمحات سريعة فى كتابه الأخير ، ولكنه سرعان
ما عاد الى طريقه المألوف ، طريق العداء للديمقراطية المرتكزة على
أساس شعبى والمعبرة بمن الارادة الحقيقية للجماهير .

الفصل السادس

ورثته مصر ، ونسى !

فى كتاب هيكل عن السادات نقطتان تتسمان بالضعف الشديد ، مر عليهما المؤلف بتعجل وبغير تحليل مقنع ، وانما حاول أن يقدم ليما تعليقات أدت فى الواقع الى زيادة موقفه ضعفا . هاتان النقطتان تأتیان عند بداية علاقة السادات بعبد الناصر والثورة المصرية ، وعند نهاية عهد عبد الناصر واختياره أنور السادات لخلافته . فكيف يصف هيكل هاتين اللحظتين الحاسمتين : لحظة انضمام السادات الى تنظيم الضباط الأحرار ، التى حصل فيها على جواز المرور الى تاريخ مصر ، ولحظة تعيين عبد الناصر للسادات نائبا له ، قبل وفاته بوقت قصير ، وهى اللحظة التى ضمنت له دخول هذا التاريخ من أوسع أبوابه ؟

يقول هيكل فى « خريف الغضب » : « فى أواخر سنة ١٩٥١ أصبح أنور السادات عضوا فى تنظيم الضباط الأحرار . وقد كان كل أعضاء اللجنة التأسيسية للتنظيم يعارضون انضمامه باستثناء جمال عبد الناصر . كانوا يعرفون السجل بطبيعة الحال . . . وكان عبد الناصر يعرف يقينا بكل هذه الوقائع » .

ما هى هذه الوقائع التى أدت بأعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار الى رفض انضمام أنور السادات الى تنظيمهم ،

والتي أصر عبد الناصر على قبوله في التنظيم على الرغم من معرفته اليقينية بها ، وعلى الرغم من معارضة جميع أعضاء اللجنة الآخرين لهذا القبول ؟ كانت هذه الوقائع ، كما شرح هيكل في كتابه بأسهاب ، تشمل : الانضمام الى الحرس الحديدي الذي كان يخدم أغراض الملك - السعي الى تخليص الملك من أقوى خصومه السياسيين بالتصفية الجسدية - الاتصال برجال القصر وعلى رأسهم « يوسف رشاد » وتلقي رشوة مقدارها ألف جنيه من هذا الأخير « لكي يؤثت بيتا ويشتري سيارة ، ويبدأ حياة جديدة » وغيرها من الوقائع المثيرة للارتباب .

كيف إذن أصر عبد الناصر على قبول السادات في التنظيم ، وتحمل بذلك مخاطرة أن يوصف بالدكتاتورية لأنه رجح صوته الوحيد على أصوات جميع الأعضاء الآخرين الراضين ؟ يقدم هيكل في هذا الصدد ما يسميه « اجتهادات » يحاول بها تفسير هذا الاصرار ، وهي اجتهادات لا تفسر في الواقع شيئا ، بل يمكن الرد عليها بسهولة تامة . فمن الجائز أن عبد الناصر أراد معرفة أخبار القصر مستغلا علاقة السادات بيوسف رشاد . ولو صح هذا التعليل لكان من الواجب أن يبعد السادات عن التنظيم بمجرد نجاح الثورة وإغلاق القصر وطرد صاحبه من البلاد ، فما فائدة الاحتفاظ بعميل سابق للقصر بعد أن انتهت مهمته ؟ ومع ذلك فإن السادات لم يكن أول من خرج من أعضاء مجلس الثورة ، وإنما خرج الجميع وبقي هو !

وينطبق هذا الكلام نفسه على التعليل الآخر الذي قدمه هيكل ، وهو تضليل القصر عن أخبار الضباط الأحرار من خلال الصلة السابقة نفسها . ففي هذه الحالة أيضا كان من الواجب أن تنتهي مهمة السادات بمجرد نجاح الثورة .

أما تعليل عبد الناصر نفسه ، كما زواه لهيكل فيما بعد ، فهو « أردت أن أضع في إطار الحركة كل هؤلاء الضباط الذين اقترن اسمهم بالعمل السياسي في مصر » . هنا أيضا نجد أنفسنا غير

مقتنعين : هل أى ضابط اقترن اسمه بالعمل السياسى يمكن أن يقبل فى التنظيم ، حتى لو كان العمل السياسى الذى مارسه عمالة مزدوجة وخدمة لأهداف القصر ، أى بكلمة واحدة ، حتى لو كان هذا العمل السياسى « خيانة » ؟ لو افترضنا ان حاجة التنظيم فى بدايته الى عناصر نشطة وممارسة كانت هى التى أرغمت عبد الناصر على قبول شخصية مثيرة للشبهات كهذه ، فان هذه الحاجة تنتهى تماما بمجرد أن ترسخ أقدام التنظيم ويصبح هو الذى يحكم مصر بلا منازع . ويبدو أن أعضاء مجلس الثورة قد نظروا الى الأمر على هذا النحو ، بدليل قول هيكى ان هؤلاء الأعضاء ، بعد يولييه ١٩٥٢ مباشرة ، « تجددت شكوكهم فيه ، بل وبدأ معظمهم يوجه اليه فى حضوره بعض الملاحظات الجارحة ، ولكن عبد الناصر كان يحميه » .

هناك اذن سر فى موضوع دخول السادات فى تنظيم الضباط الأحرار ، واستمرار عضويته فيه بعد أن انتفت الأسباب التى يقال انها هى التى دعت الى قبوله . ولا تقدم الينا رواية هيكل أى تعليل مقنع لهذا السر ، بل انها تترك الموضوع عائما ، وتكاد توحى بأن عبد الناصر كان لديه ميل خاص ، غير مفهوم الى السادات ، على الرغم من علمه بتاريخه .

تلك اذن لحظة حاسمة فى تاريخ السادات ، وفى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ، تركها هيكل غير مفهومة ، فهل كان هيكل يستخف بأهمية هذه اللحظة ، حين قدم تعليقاته غير المقنعة ، أم كان يخفى شيئا لا يريد أن يعلن عنه ، أم كان يستخف بقدرة القارئ على الشك والتساؤل ، أم كان - أخيرا - يؤمن بحق عبد الناصر المطلق فى أن يفعل ما يشاء بغير أسباب ؟

لنترك هذه اللحظة مؤقتا ، ولننتقل الى لحظة أخرى أهم منها بكثير ، لحظة كانت مصيرية بحق ، هى تلك التى قرر فيها عبد الناصر أن يعين السادات بالذات ، ومن دون أبناء مصر الذين كانوا عندئذ يزيدون عن الثلاثين مليونا ، ليكسبون نائبا لرئيس

الجمهورية ، وخليفته في حكم مصر .
 ونستمع ، مرة أخرى ، الى ما يقوله هيكل .
 في فصل بعنوان « في ظل عبد الناصر » ، يقول هيكل :
 « كان طبيعيا أنه حين تعرض عبد الناصر للنوبة القلبية الأولى
 في سبتمبر ١٩٦٩ أن يضع السادات على رأس لجنة تضم بعض
 القريبين منه وتتولى تسيير شئون الدولة في غيابه . وعلى أى حال
 فإن هذه اللجنة لم يقدر لها أن تبشر عملا حقيقيا . فما لبث
 عبد الناصر أن نسي نوبته القلبية وعاد يمارس شواغله
 ومسئوليته . وفي ديسمبر عام ١٩٦٩ كان على عبد الناصر أن
 يشارك في أعمال مؤتمر القمة العربي في الرباط بالمغرب . . . وعندما
 دعاني الى الجلوس بجانبه بعد اقلاع الطائرة كما كان يفعل
 دائما ، فانه أشار الى بالجلوس وعلى وجهه ابتسامة ، وفوجئت به
 يقول : « هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ » ولم أكن أعرف . وقال
 لي : « كان أنور السادات سيمنر على لكي يصحبني الى المطار ،
 وطلبت منه أن يجيء معه بمصحفه . ولم يفهم ما عنيت ببساطة
 الطلب ، وعندما جاء فقد جعلته يقسم اليمين ليكون نائبا لرئيس
 الجمهورية في غيابه » . وأبدت دهشتي وسألت عن السبب الذي
 دعاه الى ذلك ، ومد عبد الناصر يده الى ملف كان قد وضعه أمامه
 . . وكانت فيه برقية . . تقول ان هناك معلومات بأن الجنرال أوفتير
 يتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في محاولة لاغتيال
 عبد الناصر أثناء وجوده في المغرب . . وقد فكرت في أنه اذا فرض
 وصدقت المعلومات هذه المرة وحديث شيء ، فإن أنور يصلح لسد
 الفترة الانتقالية . . وفي فترة الانتقال فان دور أنور سيكون
 شكليا . . ثم أضاف عبد الناصر : « ان الآخرين جميعا واتهم
 الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية الا أنور ، ولعله دوره
 الآن . . . وعلى أى حال فهي فترة أسبوع على أرجح الأحوال » .
 وتلا ذلك حديث طويل عن شواغل عبد الناصر الكثيرة خلال
 الفترة التالية ، تخلله حديث آخر عن فضيحة ارتكبها أنور السادات

« وكان يمكن أن تكلفه منصبه كنائب رئيس الجمهورية ، ونغير بالتالى مجرى تاريخ مصر الحديث » ، وهى استيلاؤه بالقوة ، وعن طريق قرار جمهورى ، على قصر فى الهرم كان يملكه ضابط سابق اشتغل بالأعمال الحرة . ثم حانت ساعة موت عبد الناصر . « كان السادات لا يزال حتى ذلك الوقت هو نائب الرئيس رسميا . وبكل الشواغل التى ألحت على العمل الوطنى ، من مؤتمر الرباط الى زيارة موسكو السرية الى استمرار حرب الاستنزاف الى مبادرة روجرز الى المواجهة بين الملك حسين والثورة الفلسطينية فى الأردن ، فان وضع أنور السادات كنائب للرئيس كان قضية منسية حتى وان كان قد خطر للبعض - بمن فيهم جمال عبد الناصر نفسه - أن الأمر قابل لاعادة النظر فيه . وهكذا بقى أنور السادات فى مكانه حتى هذه اللحظة الحزينة » .

معذرة ، أيها القارئ العزيز ، على هذا الاقتباس الطويل ، ولكن هذه اللحظة التى يصفها هيكىل ، وهى اللحظة التى يجد فيها مناسبة لاستعراض مكانته (أجلسنى بجانبه كما كان يفعل دائما) ، والتى تحدث فيها عبد الناصر الى هيكىل بابتسامة وفاجأه بسؤاله الذى يحمل معنى الدعابة : هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ هذه اللحظة هى التى قررت مصير مصر ، ومعها الأمة العربية ، حتى يومنا هذا . فى هذه اللحظة بدأت المسيرة المشثومة المؤدية الى زيارة القدس ، والصلح والتطبيع ، وترك لبنان والفلسطينيين لمخالب الوحش الصهيونى ، والانفتاح ، ونهب مصر ، ووصاية البنوك الدولية والأمريكية على اقتصادها . . . هذه اللحظة التى يعرضها هيكىل باستخفاف شديد ، بل وينتهاز الفرصة للتفاخر بذاته وبقربه الدائم من الرئيس ، هى التى فتحت الطريق لكوارث مصر والعرب فى السبعينات ، ولهذا اقتبسها من كتاب هيكىل بالتفصيل .

ولكننى لم أقتبسها فقط لكى أبين التضاد المحزن بين جو الحفة والسهولة الذى كان يصفه هيكىل فى سطره ، وبين شبح

المصير المتساوي الذي يطل من بين سطور هيكل ، ساخرا من القاري . ومن هيكل ، ومن عبد الناصر ، بل من الأمة العربية جمعاء كلا ، لم أقتبسها لغرض كهذا فقط ، وإنما اقتبسيتها لكي أشرك معي القاري في محاولة طويلة لاستخلاص المعاني البشعة التي تنطوي عليها هذه السطور .

أول هذه المعاني هو البساطة العجيبة التي اتخذ بها قرار خطير كهذا ونفذ على الفور : عبد الناصر يطلب الى السادات أن يجيء معه بالمصحف أثناء مروره عليه ليصحبه الى المطار . السادات لا يعرف السبب ، ولكن المفاجأة تنتظره ، يقسم اليمين ، وبذلك يتحدد من سيكون رئيس جمهورية مصر القادم . هيكل نفسه لم يكن يعرف ، ولكن يتضح أن السبب هو تقرير عن مؤامرة محتملة في المغرب لاغتيال عبد الناصر ، مؤامرة لم ينظر اليها عبد الناصر بجدية ، ولكن لا بأس من الاحتياط ! هكذا ، بلا استشارة حتى من أقرب المقربين ، يحدد المساكم من سيخلفه في حكم بلاده في مرحلة من أخرج المراحل التي مرت بها طوال تاريخنا الحديث . ويقرر بذلك مصير أمته من بعده . لست أدري ماذا يكون شعور القاري حين يقرأ هذه السطور ، ولكنني أقول عن نفسي انني شعرت بالاهانة حين وجدت مستقبل ، ومستقبل أبنائي وبلدي ، يحدد بمثل هذا الاستخفاف ، دون أن تكون لي ، كمواطن ، كلمة ولا رأي ، ودون أن يصل صوتي عن طريق القنوات التي صاغتها تجارب طويلة للشعوب ، والتي تتيح للناس في المجتمعات التي تحترم مواطنيها أن يختاروا من سيتجمل مسئولياتهم في مستقبل الأيام .

ولكن لدى هيكل ، بالطبع ، اجابة جاهزة . انه يقول للقاري : لم يكن هناك عندئذ ما يدعوا الى الانزعاج ، ولا حتى الى الاهتمام ، فقد كانت المسألة مؤقتة . لن تطول أكثر من أسبوع ، وكانت مجرد احتياط من أن تقع مؤامرة الاغتيال في المغرب ، وكل ما في الأمر هو أن السادات قد خدمه الحظ ، طوال

السنوات التالية ، لأن عبد الناصر وضعه على كرسى الخلافة ونسى أن يبعده عنه - وهو معذور في هذا النسيان ، فقد كانت الأحداث جساما ، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بأن يتذكر هذا الموضوع الثافه ، موضوع تعيين السادات خليفة له في حكم مصر !

مرة أخرى ، لست أدري ، ماذا يكون شعور القارىء وهو يستمع الى حجة هيكل هذه ، ولكننى أقول عن نفسى اننى شعرت باهانة أخرى ، اهانة لعقلي وتفكيرى وأدميتى يوجهها الى واحد من أولئك الذين عاشوا طويلا فى جو الاستخفاف بعقول الناس والاستهانة بهم .

فحسب أقوال هيكل نفسه ، وقع اختيار عبد الناصر على السادات لتسيير شئون الدولة مرتين ، لا مرة واحدة . الأولى عند اصابته بنوبة قلبية ، والثانية عندما قرأ تقارير الأمن عن المؤامرة المغربية الأمريكية المحتملة . وهذا معناه أن الاختيار لم يكن عشوائيا على الاطلاق ، بل كان متعمدا مقصودا . ولا شك أن الاصابة بنوبة قلبية هى انذار كاف لأي انسان ، أى أن احتمالات النهاية لابد أن تكون قد طافت ، ولو من بعيد ، بذهن عبد الناصر . وعلى ذلك فحين يختار خلفا له ، فإنه يعلم أن هذا يمكن أن يكون اختيارا لمستقبل بلاده . وحتى لو كانت مؤامرة المغرب مجرد اشاعة ، فإنها تستدعى اختيار أصلح العناصر للخلافة ، على سبيل الاحتياط أيضا .

ولكن الكارثة الكبرى فى الموضوع كله تكمن فى نقطتين : الأولى هى قول عبد الناصر : « ان الآخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية الا أنور ، ولعله دوره الآن » . اذن كان حكم مصر « بالدور » . مجموعة الضباط الذين شكلوا مجلس قيادة الثورة ، يتناوبون على المنصب الخطير واحدا بعد الآخر ، وفى النهاية ، وفى لحظة مرض القلب والتهديد بالاغتيال ،بقى واحد منهم ، فلا بد اذن أن يأخذ نصيبه - ونصيبه

هو أن يكون خليفة لحاكم مصر .

اننى لا أشك لحظة واحدة فى ذكاء هيكل الذى كان بالفعل غير عادى . ولكن الأمر الذى يذهلنى بحق هو : كيف فسات على هيكل ، بكل ذكائه ، المغزى الواضح والصارخ لهذا الكلام ؟ كيف يعجز هيكل الموهوب عن أن يدرك أنه ، بكلامه هذا ، يسىء الى عبد الناصر أبلغ اساءة ، ويهين مصر كلها اذ يصورها على أنها « عزبة » لا بد أن يتناوب على امتلاكها مجموعة الضباط هؤلاء « بالدور » ؟ فكر جيدا أيها القارى فى المقياس السذى يتم على أساسه الاختيار : ليس الكفاءة ، التى لم يثبت السادات خلال حكم عبد الناصر - حسب كلام هيكل - شيئا منها ، وليس الوطنية ، فقد كان عبد الناصر وهيكل يعلمان أنه كان فى وقت ما عميلا مزدوجا ، وليس وجود برنامج لانقاذ الوطن لديه ، فقد كان بشهادة هيكل عاكفا على حياته الخاصة ، عزوفا عن القراءة والاطلاع وتثقيف نفسه ، وانما المقياس هو أنه الوحيد الذى لم ينل بعد نصيبه من الفطيرة . . هو أن « عليه الدور » !

أما الكارثة الثانية ، فى هذه القصة الحزينة ، فهى أن عبد الناصر ، بعد أن وضع السادات فى هذا المنصب الخطير ، تركه فيه لأنه « نسى » . هكذا يريدنا هيكل أن نصدق أن شيئا بالغ الأهمية كهذا يمكن أن ينسى بمثل هذه السهولة . ولكى يمرر لنا هذه الحجة الهزيلة يعدد أمامنا المشكلات التى انشغل بها عبد الناصر خلال الفترة التى كان السادات فيها « منسيا » فى منصب الرجل الثانى فى مصر . لقد كانت تلك مشكلات خطيرة حقا ، ولكن خطورتها ذاتها كانت تفرض على عبد الناصر أن يزداد تذكرا لموضوع خلافته ، لا أن ينسأه . فالسادات أمامه كل يوم ، وهو بالقطع لم يحصل على قرار التعيين نائبا لرئيس الجمهورية ثم أسرع يختبئ فى مكان بعيد ، داعيا الله أن ينسأه الرئيس الى أن يموت ! وخطورة المشكلات التى كان يواجهها عبد الناصر هى ذاتها أقوى مبرر لكى يتذكر فى كل لحظة أن الوطن فى خطر ، وأن

من يخلفه في حمل الأمانة ينبغي أن يكون على مستوى المسئولية .
 وحتى لو لم تذكره بموضوع الخلافة تلك الأحداث الجسام ،
 فإن تصرفات السادات ذاتها لابد أنها أدت الى تذكره بنسوع
 الاختيار الذى قام به : فقد حدثت فضيحة القصر الذى استولى
 عليه السادات ، بالحاح من زوجته ، من ضابط سابق اشتغل فى
 الأعمال الحرة (لا أدري من أين استولى عليه هو الآخر ، أو من أين
 أتته الأموال لشرائه) - حدثت هذه الفضيحة «بعد» تعيين السادات
 نائبا للرئيس ، وحسب رواية هيكل فإن عبد الناصر غضب
 غضبا شديدا عندما علم بما حدث ، ومع ذلك فإن هيكل يذكر ،
 بطريقة غير مفهومة ولأسباب غير واضحة ، أن عبد الناصر عندما
 هدأ غضبه كافا السادات بقصر على النيل ! وهكذا فإن عبد الناصر ،
 كما يصوره لنا هيكل ، تلقى انذارا واضحا بنوع السلوك الذى
 يمكن أن يسلكه السادات عندما يترك له حكم مصر . فاذا لم تكن
 المشكلات الدولية والقومية والوطنية الخطيرة التى كانت تشغل
 عبد الناصر ، عندئذ ، كفيلا بأن تذكره بضرورة اختيار خليفة
 وطني قادر على التصدى لها . ألم يكن اغتصاب السادات لبيت لا
 يملكه ، لمجرد أنه أعجب زوجته ، كافيا لكى ينبه عبد الناصر الى
 عيوب الرجل الذى ائتمنه على أمته كلها من بعده ؟ ومع ذلك فإن
 عبد الناصر ، حسب رواية هيكل ، كافا السادات بقصر على النيل
 بعد فترة غضب قصيرة . . . أريد هيكل أن يوحى لنا بأن تصرفات
 مثل الاستيلاء على بيوت الآخرين لم تكن تصدم الحس الأخلاقى
 لعبد الناصر ؟ أريد أن يقتنعنا بأن مفتصب مال الغير كان فى نظره
 يستحق مكافأة - مكافأة عاجلة هي قصر على النيل ، ومكافأة
 آجلة هي النيل كله ، بأرضه وشعبه ؟

ولنتأمل تناقضا آخر : لقد كان عبد الناصر ، عندما عين
 السادات نائبا له ، يتحوط ضد مؤامرة تشترك فيها عناصر مغربية
 وتدبرها المخابرات المركزية الأمريكية . ولكن عبد الناصر كان ،
 من جهة أخرى ، يعرف أن للسادات ميولا أمريكية قوية .

وحسبنا دليلاً على هذا أن نشير إلى مقال كتبه السفير الأمريكي الأسبق في مصر ، لوشينوس باتل ، تحدث فيه عن رحلة رتبها للسادات وزوجته عام ١٩٦٦ ، وعاد بعدها السادات مبهورا بكل ما هو أمريكي . ويهمننا في المقال إشارة الكاتب إلى أن عبد الناصر ، عندما قابله بعد ذلك في إحدى الحفلات ، قال له : « صاحبكم هذا ، أنور السادات ، محب ولهان لأمريكا » ، فلما قال له السفير : « وما العيب في ذلك ، ليته كان هناك آخرون لديهم نفس الاتجاه في هذا البلد » ضحك عبد الناصر ، « ولكن كانت هناك دائما مسحة من الاستخفاف في تعليقاته » (١) . وبطبيعة الحال فإن مسلك السادات تجاه أمريكا خلال سنوات حكمه تجعلنا لا نشك لحظة واحدة في صحة هذه الرواية . ولكن ، كيف يكون عبد الناصر على علم بميول السادات الأمريكية القوية طوال هذا الوقت ، ثم يختاره نائباً بسبب مؤامرة أمريكية محتملة ؟ هل يقبل الأب الذي يتعرض للتهديد بالقتل من أفراد عصابة معينة ، أن يختار أحد هؤلاء الأفراد وصياً على أبنائه من بعده ؟

إن قصة خلافة السادات لعبد الناصر ، والاختيار المشؤوم الذي حدث في أحد أيام ١٩٦٩ ، هي قصة فريدة من نوعها . ولقد كانت الرواية التي أوردتها هيكل عنها مليئة بالمتناقضات والمفارقات التي تستخف بعقل القارئ وتهين ذكاه ، ولا أظن أن أحداً ، حتى هيكل ذاته ، يمكن أن يقتنع بهذه الرواية المهلهلة . وهنا يبرز سؤال هام : إذا كان تفسير هيكل لاختيار عبد الناصر للسادات مكشوفاً في ضعفه إلى هذا الحد ، فلما الذي جعله يلجأ إليه ؟

أغلب الظن أن هيكل اضطر إلى تزويج هذا التفسير الهزيل لأنه وجد نفسه أمام سؤال محرج ، تسأله تلك الأجيال الشابة الجديدة التي تنظر إلى عبد الناصر على أنه أعلى نماذج الوطنية ،

1) Lucius D. Battle : Anwar Sadat Remembered.
SAIS REVIEW. Winter 1981-82, No. 3.

والتي رأت بنفسها ما لحق بمصر والعرب من انهيار في عهد السادات . هذا السؤال هو : كيف اختار زعيم كبير كعبد الناصر خليفة مختلفا عنه في كل شيء مثل أنور السادات ؟ ونما يزيد هذا السؤال تعقيدا ، أن هيكمل أكد بصورة قاطعة أن عبد الناصر كان يعرف كل شيء عن السادات : كان يعرف ماضيه مع القصر ، وميله الى الاستمتاع بحياته بكل الطرق في حاضره ، وانبهاره بالأمريكان ، أعداء الوطن العربي الألداء منذ عام ١٩٦٧ على الأقل . واذن يعود السؤال بالحاج : كيف يقبل زعيم وطني أن يأتى شخصا مناقضا له في كل شيء على وطنه من بعده ؟ من أجل محاولة الاجابة على هذا السؤال المخرج ، اضطر هيكمل الى أن يتحدث عن تعيين نواب رئيس الجمهورية « بالدور » ، وعن « نسيان » الرئيس لنائبه في مكانه الى أن خلفه بعد موته . أعنى ، بالاختصار ، اضطر هيكمل الى أن يلقى اجابة لا تقنع أحدا .

وفى اعتقادى ، أولا ، أن هذا سؤال خطير وجوهري ينبغي ألا يقابل بأى استخفاف ، لأنه يتعلق بمصير الأمة العربية كلها ، الذى قامر به السادات على مائدة أمريكا بعد أن أعطاهما ٩٩٪ من أوراق اللعبة ، ومن ثم فلا بد أن نلج فى المطالبة بتفسير له . وفى اعتقادى ثانيا أن من المستحيل تقديم اجابة مقنعة عن هذا السؤال فى إطار الموقف الذى يمثله هيكمل : أعنى موقف الدفاع على طول الخط عن عبد الناصر ، والهجوم على طول الخط على السادات . فلكى نجيب عن هذا السؤال الحيوى اجابة مقنعة ، لابد أن نكون أكثر تعمقا فى تحليلنا من أن نقتيد بهذا الاستقطاب الناصرى - الساداتى . وسأقوم ، من جانبى ، بمحاولة لتفسير هذه الظاهرة التى تبدو مستعصية على الفهم ، آملا أن ينظر القارئ الى هذا التفسير على أنه حافز للتفكير ، من حقه أن يقتنع به أو لا يقتنع ، ولكن من واجبه أن يفكر فيه بامعان : ان الزعيم الذى يحكم حكما غير ديمقراطى لا يقبل بجانبه الا الأعداء الذين يطيعون ، وينحنون ، ولا يعارضون . ونحن

يسود الطابع الفردى فى الحكم ، يظل الأعوان المحتفظون بكرامتهم والمتسكون بأرائهم ومواقفهم ، أو حتى أولئك الذين يخالفون الزعيم لمصالح شخصية ، يظل هؤلاء يستبعدون واحدا بعد الآخر ، حتى لا يبقى فى النهاية الا الرجل الذى يقول دائما : نعم . ولقد اقترب هيكىل من الحقيقة دون أن يشعر حين قال ، فى نفس الفصل الذى اقتبسنا منه من قبل : « كما حدث من قبل ، وكما سيحدث فيما بعد ، فإن طبيعة أنسور السادات المستعدة للخضوع أمام الأقوى كانت هى التى حكمت موقفه . كانت أحسن أيامه هى تلك التى كان يستطيع فيها أن يلتصق بشخصية قوية » وإذا كان هيكىل قد قصد بهذه الشخصية القوية ، فى كلامه السابق ، المشير عبد الحكيم عامر ، فإن هذا الحكم يمكن أن ينطبق على مسلك السادات بوجه عام ، وإن كان ذلك المسلك فى نظرنا واعيا متعمدا ، وليس مجرد تعبير عن شخصية ميالة للخضوع والالتصاق بالأقوياء .

كان السادات أذكى من الجميع لأنه أدرك قانون اللعبة : اترك الزعيم يمارس قوته وإياك أن تقول له « لا » مهما فعل . ولكن ما ينبغى أن نتذكره هو أن هذا القانون يحتاج الى طرفين : طرف يلتزم بالقبول والخضوع ، وطرف آخر - هو الزعيم - يجعل مقياس قرب الناس منه هو مدى خضوعهم له ، ومدى تخليهم عن إراداتهم الخاصة لى يكون هو صاحب الإرادة الشاملة . فلكى ينجح « الأذكياء » ممن يجيدون فن طاعة الرأس (حتى يعلو فيما بعد ، كما تقول أغنية سيد درويش المشهورة) ، لا بد أن يكون الطرف الآخر الذى يتعاملون معه من ذلك النوع الذى لا يستطيع أن يتحمل أى شخص يبدى استقلالا فى رأيه . ولذا كان من المستحيل أن ينجح « أهل الطاعة » مع أى زعيم ديمقراطى .

وليتأمل القارئ دلالة العبارة التى يقول فيها هيكىل : « كان بيت السادات فى الهرم هو المكان الوحيد الذى يستطيع فيه جمال عبد الناصر أن يذهب لى يقضى بين حين وآخر ساعات مع

صديق لم يكن يضغط على أعصابه باثارة مناقشات سياسية أو عسكرية ملحة ، . هكذا كانت « الراحة » هنا تكمن فى أن يكون الصديق مطيعا لا يناقش فى الأمور الهامة ، بينما الذين كانوا يناقشون ، ويعارضون ، فى ظروف ما بعد هزيمة ٦٧ التى كانت تقتضى إعادة النظر فى كل شىء ، هؤلاء لم يكونوا « مريحين » .

وهكذا نصل الى القاعدة الهامة التى تحكم عملية الخلافة على السلطة فى الحكم غير الديمقراطى : ان الحاكم ، نتيجة لانفراده بالسلطة ، يشعر بأهمية القوة ويستأثر بها ، وبالتالي لا بد أن يزيج من طريقه كل من يحاول الحد من هذه القوة عن طريق المعارضة ، وكل من يرفض انفراده بالقرار . وهكذا يكون الضعيف الراضخ ، هو الذى يبقى فى النهاية بعد سلسلة التصفيات . وبعبارة أشد وضوحا ، فان ظاهرة السادات افراز طبيعى للحكم المطلق ، وأسلوب الحكم الذى انتهجه عبد الناصر كان لا بد أن يؤدى فى النهاية الى خليفة مثل أنور السادات .

وهنا تتضح لنا صفة تبدو على قدر كبير من الغرابة ، ولكنها تفسر الموضوع الذى نحن بصدده تفسيرا كاملا : فالحاكم القوي يؤدى فى هذه الحالة - بصورة حتمية - الى الحاكم الضعيف ، والمتشدد أمام قوى الاستعمار فى الخارج والطبقات العليا فى الداخل يفرز المهادن للاستعمار ، الذى يستسلم أمام الطبقات العليا ويسير فى ركابها . وبعبارة أخرى فان كل مظاهر الاختلاف بين عبد الناصر والسادات لا تتعارض مع كون الثانى استمرار للأول ونتيجة طبيعية له . هذه حقيقة ينبغى أن ننتبه اليها جيدا : اذ أن من يسمع أحدا يتحدث عن وجود استمرارية بين عبد الناصر والسادات ، يتصور أنه يقصد وجود تشابه بين العهدين فقط ، ولكن حقيقة الأمر أن هناك استمرارية مع التضاد : أعنى أن يكون الحاكم المهادن والمستسلم هو الامتداد الطبيعى للحاكم القوى المتشدد ، على الرغم من كونه نقيضا له ، بل « بسبب » كونه نقيضا له .

هذا هو التفسير الذى اعتقد أنه هو. وحده القادر على الإجابة عن ذلك السؤال المحرج ، المحير ، الذى طرحناه من قبل ، وأعنى به : كيف يمكن أن يختار الحاكم الوطنى ، بنفسه ، خليفة غير وطنى ، يأتى من بعده على أمته وهى تمر بأخطر مراحل حياتها ، وتسعى بمشقة شديدة الى التخلص من يرثى عدوان جائم على صدرها ؟ فلنقل إن هذا ، على الأقل ، هو اجتهدى ، ومن حق أى شخص أن يعترض على ، ولكنه سيكون ملزما بأن يقدم تفسيراً أفضل ، يعلل جوانب الظاهرة كلها . وكل ما آمله هو أن لا يبلغ به الاستخفاف بعقولنا حداً يجعله يكرر شيئاً مما قاله هيكىل فى هذا الموضوع .

وسواء أكان التفسير الذى أقدمه مقبولا أم غير مقبول ، فليذكر القارئ دائما أن الهدف من هذا الحديث الطويل ، بل من كل ما قلته وسأقوله فى هذا الكتاب ، ليس إحراج هيكىل ، ولا انتقاد السادات أو عبد الناصر ، وإنما هو قبل كل شئ دعوة الى التفكير فى ذلك الجو العام الذى عاش فيه كل من شارك فى مأساة العرب خلال العقود الأخيرة .

ذلك الجو الذى يسمح للحاكم أن يختار خليفته بأكثر الطرق عشوائية ، وكأنه يغير لونا للملابسه ويستبدل به لونا آخر ، دون أن يستشير أحدا ، أو يحتكم الى شعب ، أو حتى أن يسأل صديقا مقربا

ذلك الجو الذى يتم فيه للحاكم اختيار خليفته وهو على علم تام بسجله الطويل غير المشرف ، بعد أن تجمعت النذر التى توحى الى الحاكم بأن نهايته يمكن أن تحين . . .

ذلك الجو الذى يكون فيه معيار اختيار حاكم المستقبل هو أن « عليه الدور » وأنه مطيع ، مريح ، لا يجادل ولا يناقش ، أى بالاختصار ، بحث الحاكم الموجود عن راحته هو ، بدلا من تفكيره فيما يمكن أن يحدث لأمره فى مستقبلها المحفوف بالأخطار ، لو تولى أمرها خلف من هذا النوع . . .

ذلك الجوّ الذي يختار فيه الحاكم خليفته ثم « ينسى » ، ويمتد
به النسيان شهرا وراء الآخر ، فى أخرج فترات التاريخ ، حتى
يموت ناسيا ...

وأخيرا ، ذلك الجوّ الذى يسمح لكاتب بأن يروى لنا هذا
كله دون أن تطرف له عين ، ودون أن يرى فيه أى خطأ ، بل
يحكى قصة التلاعب بمصير أمة وكأنها حكاية مسلية ، ويجد مع
ذلك من يدافع عنه ، ويصفق له ، ويعامله كما لو كان شهيدا
للحرية والديمقراطية .

إنها قصة حزينة ، وأشدّ جوانبها مدعاة للحزن هو أن كل
الأطراف فيها مدانون ، وكلهم يسهمون فى تلك الجريمة الكبرى
التي لم ترتكب النظم اللاديمقراطية ما هو أفظع منها - جريمة
هدم العقول .

الفصل السابع

مع السادات على جناح واحد

الانطباع الذى يقدمه الينا هيكل عن علاقته بالسادات هو انه كان شديد القرب منه فى السنوات الأولى من حكمه ، ثم اختلف معه بعد عام ١٩٧٤ ، فى الوسائل أولا ، وبعد ذلك فى الغايات والأهداف العامة . وهو لا يدع لنا أى مجال للشك فى التوحيد بينه وبين السادات خلال تلك السنوات الأولى . « كنت شديد التعاطف مع السادات كإنسان » . . . « فى السنوات الأربع الأولى كنت أقرب اليه من أى إنسان آخر » . « كانت هناك فترة فى علاقاتنا توحدت فيها مقاصدنا . . . فكلانا كان يطلب سلاما قائما على العدل فى الشرق الأوسط ، وكلانا كان يريد أن يرى مصر حرة ومزدهرة ، والعالم العربى موحدًا وقويا » . « أعتقد أننى لعبت دورا مؤثرا . . فى المداولات والمشاورات السياسية التى أدت الى اختيار السادات رئيسا للجمهورية بعد رحيل جمال عبد الناصر » . هذه الاعترافات ليست فى الواقع مقصودة لذاتها ، بل ان الهدف منها هو أن يرد هيكل ، فى الصفحات الأولى من كتابه ، على ذلك الاعتراض الذى يمكن أن يوجهه أكثر الناس سذاجة الى هيكل حين يقرأ ما كتبه عن السادات فى « خريف الغضب » : كيف تهاجم السادات الى هذا الحد مع أنك كنت من أقوى دعائم

حكمه ؟ وهكذا قرر هيكل ، بذلك شديد ، أن ينزع مخالف القارئ المعترض منذ البداية ، ويقول له في الصفحات الأولى : نعم ، لقد كنت قريبا جدا منه ، ولكن طريقنا قد افترقا فيما بعد لأسباب متعلقة بالمبادئ السياسية .

هذا اعتراف يؤدي ، اذا ما صدقه القارئ ، الى استبعاد أية شبهة للتناقض بين مواقف هيكل القديمة والجديدة ، والى تجريد سلاح كل من يحاول الإشارة الى الاندماج والانسجام التام الذي كان قائما بين هيكل والسادات في وقت من الأوقات ، والى اعطاء هيكل كل الحق في هجومه المتأخر على السادات ، بعد أن كان من أقوى أنصاره .

ولكن ، هل يفلح هذا الدفاع حقا في تبرئة هيكل من تهمة التناقض ، والتقلب من عهد الى عهد ؟ في رأيي الخاص أنه لا يفلح . ذلك لأن هيكل قد ارتكب في كتابه خطأ قاتلا ، هو اشاراته الطويلة الى الجوانب الشديدة السلبية في تاريخ السادات قبل أن يتولى الحكم . هذه الاشارات لو كانت قد صدرت عن كاتب محايد لم يرتبط بالسادات في أى وقت ارتباطا عضويا وثيقا ، لكانت مصدرا عظيم القيمة للمعلومات عن عادات وممارسات حاكم مثير للكثير من الجدل . ولكن صدورهما عن هيكل بالذات يلحق به هو ذاته أفدح الأضرار . ذلك لأننا لن نجد عندئذ عذرا نبرر به تعاطف هيكل مع السادات « كانسان » في السنوات الأولى من حكمه ، أعني في وقت كانت فيه جميع عيوب السادات السابقة معروفة للجميع . فكيف تعاطف هيكل مع السادات كانسان في الوقت الذي كان يعرف فيه عنه كنية هائلة من المعلومات تشينه الى أبعد حد كانسان ؟ اننا لو شئنا الدقة لقلنا ان ما قاله هيكل ، أخيرا ، عن طفولة السادات وشبابه والإنسوان التي قضاه « في ظل عبد الناصر » بكل ما اتسمت به من فساد ورشاوى واتصال بجهات مريبة وانتفاع من أثرياء العرب - كل ذلك لا يدين هيكل في تعاطفه بعد ذلك مع السادات فحسب ، بل يدين

عبد الناصر فى قبوله شخصا كهذا ضمن المسؤولين فى حكمه ، ثم وقوع اختياره عليه هو بالذات ليكون خليفة له . والأهم من ذلك أن هذه المعلومات تدين أسلوب الحكم الذى يسمح لشخص ينسم بكل هذه العيوب بأن يصمد طوال كافة تقلبات العهد ، ثم يصعد الى المرتبة العليا التى لا ينازعه فيها أحد . هذه كلها أمور واضحة ، لا تشفع فيها كلمات هيكل التى حاول بها أن يخفف مرارة الحقيقة فى الصفحات الأولى من كتابه .

ولكن يبدو أن هيكل لم يكن مرتاحا كل الارتياح الى العذر الذى قدمه لقرائه ، ولم يكن مطمئنا كل الاطمئنان الى أنهم سيقنعون به . وهكذا نراه بعد قليل يقدم عذرا آخر فيقول : « وأظن أيضا أنني لم أكن غافلا عن بعض أسباب القصور فيه ، لكننى تصورت أن أعباء المنصب ووقر المسؤولية سوف تقوى كل العناصر الإيجابية فى شخصيته ، وسوف تساعد فى التغلب على جوانب الضعف فيها . كان فى ذهنى باستمرار نموذج الرئيس الأمريكى هارى ترومان ، الذى خلف فرانكلين روزفلت فى مقعد الرئاسة الأمريكية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد بدا ترومان فى ذلك الوقت ، وبعد روزفلت ، شخصية باهتة ومجهولة لا تستطيع أن تقود الصراع الإنسانى الكبير فى الحرب العالمية الثانية الى نهايته المطلوبة والمحقة . ولكن ترومان ، أمام تحدى التجربة العملية ، بما ونضج وأصبح من أبرز الرؤساء الأمريكىين فى العصر الحديث . ولقد تصورت أن نفس الشئ يمكن أن يحدث للسادات » .

هنا يواصل هيكل أسلوبه فى مخاطبة الناس كما لو كانت عقولهم ملغية . فهو الآن يقول ، مبررا تقلباته : نعم ، لقد كنت أعرف أن فى الرجل عيوباً ، ولكننى تصورت أن الحكم سيصلحه ! ما الذى يرغمك على هذا التصور يا سيد هيكل ؟ ألم يخطر ببالك الاحتمال الآخر ، والأوضح ، وهو أن الحكم والقوة ستزيده فسادا ؟ وهل كانت مجموعة العيوب التى أحصيتها فى مختلف مراحل

حياته ، من النوع الذى يمكن أن ينصلح تحت وطأة مسؤوليات الحكم ؟ انك تتحدث عن تقوية العناصر الايجابية فى شخصيته ، والتغلب على عناصرها السلبية . ولكننا لم نسمع منك ، طوال الفصول التى تحدثت فيها عن السادات قبل توليه الحكم ، ذكرنا لأى عنصر ايجابى ، فعلى أى شىء اذن كنت تعلق آمالك ؟

أما قصة روزفلت وترومان ، فهى أقبح عذر يمكن تصوره لأقبح ذنب . ذلك لأن أحدا لم يقل عن هارى ترومان انه أصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين فى العصر الحديث . فتاريخ ترومان يرتبط فى الأذهان بقرار بشع استهل به حكمه ، وما زالت الانسانية تلعنه من أجله حتى اليوم ، وهو قرار القاء القنبلتين الذريتين فى هيروشيما ونجازاكي - وهما القنبلتان الذريتان الوحيدتان اللتان استخدمتا ضد البشر حتى اليوم . فهل هذا ما يقصده هيكىل بعبارة « قيادة الصراع الانسانى الكبير فى الحرب العالمية الثانية الى نهايته المطلوبة » ؟ أما فى أذهاننا نحن العرب ، فان اسم ترومان يرتبط بتاريخ أسود ستلعنه من أجله كل أجيالنا التالية : هو القيام بأهم دور فى قيام دولة اسرائيل ، والاعتراف بها بعد خمس دقائق من اعلان قيامها ، والضغط على أكبر عدد ممكن من دول العالم من أجل الموافقة على قرار الأمم المتحدة بشأنها . فهل هذه هى الأسباب التى أصبح من أجلها ترومان ، فى نظر هيكىل ، واحدا من أعظم رؤساء أمريكا فى العصر الحديث ؟ أستطيع ، من وجهة نظرى الخاصة ، أن أعطى هيكىل كل الحق فى تشبيهه لأنور السادات بترومان ، اذا كان المقياس الذى نتبعه هو مقدار الخدمات التى يؤديها الرئيس لدولة اسرائيل !

انها ، اذن ، حجج لا تقنع أحدا ، تلك التى ساقها هيكىل لتبرير ارتباطه الوثيق بالسادات فى السنوات الأولى من حكمه ، ولم يكن اختياره أن يستخدم حججا متهافنة كهذه الا حلقة أخرى فى سلسلة التعتيم الفكرى الذى يلجأ اليه أولئك الذين نشأوا ، وازدهروا ، وترعرعوا ، فى ظل نظم حكم متسلطة ،

لاديمقراطية ، تستخف بعقول الناس وتستهن بذكائهم .
وحقيقة الأمر أن قصة ارتباط هيكل بالسادات أطول وأعقد
من ذلك بكثير ..

هناك شواهد كثيرة وقوية على أن حكم عبد الناصر كان
يضم ، في سنواته الأخيرة على الأقل ، « أجنحة » متنافسة
ومتعارضة . كان هناك الجناح العسكري المسك بقوة الجيش ،
والمتصق بالمشير عامر (شمس بدران وقادة الأسلحة المختلفة
قبل ١٩٦٧) . وكان هناك الجناح التنفيذي المتصق بعبد الناصر
في عملية الحكم (سامي شرف ، شعراوي جمعة ، محمد فايق ،
الخ ٠٠٠) وكان يقود هذا الجناح على صبرى . وكان هناك الجناح
الهادي ، المتربص ، الذي يحتفظ بعلاقاته بعبد الناصر بحذر
شديد ، دون التورط في ممارسات تشير المتاعب : أنور السادات ،
محمود فوزي ، سيد مرعي ، حافظ بدوي . وأكد اجزم بأن
هيكل كان ينتمي الى هذا الجناح الأخير . فالشواهد قوية على أن
هيكل كان من مجموعة أنور السادات قبل أن يتولى هذا الأخير
الحكم بوقت غير قصير .

ويكفي ، كمثال واحد للتدليل على ذلك ، أن استشهد بما
قاله هيكل نفسه في مقاله الذي أشرت اليه في موضوع سابق :
« ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » . فهو في هذا المقال
يروي قصة اعتقال عبد الناصر لأحد المثقفين المرتبطين بهيكل في
جريدة « الأهرام » ، وكيف غضب هيكل ولزم بيته أياما دون
أن يفاتح عبد الناصر في الموضوع . والذي يهمنا في هذا أن أنور
السادات كان هو الذي اتصل به قائلا : « ما هذا الذي تفعله ؟
انك تترك الجو هنا لكل من يريد أن يستثير ويحرض » ثم قال :
« اتصل به (بعبد الناصر) فوراً وتحدث معه بنفسك ، ولا تترك
المجال مكشوفاً لآخرين » . وبعد يومين عاود السادات الاتصال
بهيكل قائلا : « يظهر أنك جننت . لماذا تترك الأمر بينك وبينه

لكل من يريد أن يتبرع بكلمة ؟ ،
 هنا يظهر بوضوح أنه كانت هناك مجموعتان ، واحدة يمكن
 أن تحرض عبد الناصر ضد هيكل ، وأخرى حريصة على سلامة
 هيكل ضد المجموعة الأخرى ، وفيها أنور السادات . ولا شك
 أن تطوع السادات بكل هذه النصائح الى هيكل يدل على أنهما كانا
 ينتميان الى معسكر أو جناح واحد .

وربما وصف البعض هاتين المجموعتين وصفا أيديولوجيا ،
 فقال ان الأولى (على صبرى) يسارية ، والثانية (السادات)
 يمينية ، ولكن هذا فى رأى وصف لا يصدق الا فى حدود ضيقة .
 فقد تعاملت المجموعة الأولى بالفعل مع السوفييت فى وقت
 كانت مصالحهم فيه تقتضى ذلك ، وأنا أشك جدا فى أن يكون
 هناك أى أساس أيديولوجى حقيقى لهذا التعامل . أما مجموعة
 السادات فكان موقفها أوضح ، هو الميل الشديد الى الجانب
 الأمريكى ، وان كان هيكل ، داخل هذه المجموعة ، أشد حذرا وأقل
 انكشافا بكثير من الآخرين .

وعلى أية حال فان الأحداث التالية أثبتت صحة هذا التقسيم
 الى جناحين حول عبد الناصر : اذ أن الخلافات بين الجناحين خرجت
 الى العلن بعد موت عبد الناصر ، وكان فرسان المجموعة المحيطة
 بالسادات هم هيكل ومحمود فوزى (الذى عينه السادات رئيسا
 للوزراء) ، وبذل هيكل ، كما سنرى فيما بعد ، مجهودا خارقا
 للعادة لكى يفضح المجموعة الأخرى ويبرر القساء السادات بأهم
 أعضائها فى السجون ، ولكى يثبت أن طريق السادات هو الطريق
 الصحيح .

وربما تسأل البعض : ما الذى كان يدعو عبد الناصر الى أن
 يتعامل مع مجموعتين متنافرتين الى هذا الحد ؟ (لاحظ أن مجموعة
 عبد الحكيم عامر قد تمت تصفيتا نهائيا بعد هزيمة ١٩٦٧) .
 وهذا سؤال يصعب الاجابة عليه ، اذ أن ما يبدو للوهلة الأولى ،
 ولأصحاب النوايا الطيبة ، هو أن التعامل مع مجموعتين متنافرتين

يعطل وضع البرامج وتنفيذ السياسات التي كان يضعها عبد الناصر . وعلى سبيل المثال ، فإن الاجراءات الاشتراكية لن تستفيد من وجود أشخاص مثل السادات ومرعى وعثمان أحمد عثمان في قلب النظام ، ولا جدال في أن هؤلاء لم يقبلوا تلك الاجراءات الا خوفا من عبد الناصر أو مسايرة له . وهكذا يظل السؤال قائما ، والرذ الوحيد الذي أتصوره هو أن نظام الحكم كان ، بسبب عدم ديمقراطيته ، مرتكزا على القوة ، والقوة تحتاج دائما الى توازنات . ومن المفيد ، من أجل استقرار النظام ، أن تكون هناك مجموعتان تنشغل كل منهما بالأخرى ، ويمكن ضرب احدهما بالأخرى اذا ما تمادت في ممارسة قوتها أما تأثير ذلك على مصر ، فعلمه عند الله !

ثم جاء السادات الى الحكم ، وأصبحت الفرصة متاحة لجناحه لكي يبسط سلطته ونفوذه . وكان أول ما فعله هيكل هو أنه قام بدور رئيسي في تأكيد أحقية السادات بخلافة عبد الناصر على أساس « الشرعية » ، أي لأن عبد الناصر هو الذي اختاره نائبا . وهكذا يقول في كتابه الأخير : « أدركنا الحملة الانتخابية للسادات في الاستفتاء على رئاسة الجمهورية (وكان المشرف عليها هو هيكل شخصيا) على أساس أنه كان الرجل الذي اختاره جمال عبد الناصر لهذا المنصب بنفسه حين أحس باحتمال خطر على حياته » .

هل ترى الخدعة أيها القارئ العزيز ؟ ألا تشعر بأن عقلك قد أهين عندما تقرأ هذا الكلام ؟ لقد أراد هيكل أن يقنعنا من قبل بأن اختيار عبد الناصر للسادات كان مجرد ضفة ، ولم يكن مقدرا له أن يدوم أكثر من أسبوع ، وكان يرجع فقط الى أن السادات « عليه الدور » ، وكان في ذهن عبد الناصر أن يغير قراره ولكنه انشغل ، ولم يكن بقاء السادات نائبا حتى موت عبد الناصر الا ضربة حظ جعلت الرئيس « ينسى » هذا الموضوع . حسنا ،

لنصدق هذا كله . ولكن اذا صبح أن هذا هو رأى هيكل فى الموضوع ، فكيف سمح لنفسه بأن يقود الحملة الانتخابية للسادات بحجة تفترض أن اختيار عبد الناصر له كان اختيارا سليما ، وحقيقيا ، وتعبيرا عن رغبته الأصيلة والدائمة ؟ ان هيكل نفسه - تبعا لما قال - لم يكن مقتنعا بهذا الاختيار العارض ، بل يبدو أنه ناقش عبد الناصر فيه ، فكيف يدير هيكل حملته على أساس أن الاختيار كان أصيلا ؟ ان المسألة لا تحتل الا أحد أمرين : فاما أن عبد الناصر كان قد اختار السادات لأنه كان مقتنعا به ، وعندئذ تكون قصة « الدور » و « النسيان » قصة ملفقة (ويكون عبد الناصر ذاته قد أعطى شعبه أسوأ « هدية » لمستقبل أيامه) ، واما أن عبد الناصر كان قد اختاره بصورة مؤقتة ، ولم يكن ينوى أن يحتفظ به الى النهاية ، وفاجأه الموت قبل أن يعدل عن رأيه ، وعندئذ يكون هيكل قد أدار حملة السادات الانتخابية على أساس عملية غش كبرى موجبة ضد الجماهير البريئة الذاهبة الى صناديق الاستفتاء .

اذن فقد أصبح السادات ، بفضل مؤازرة هيكل وتعاونه معه قليا وقالبا ، رئيسا للجمهورية . ولكن الأمر لم يستتب له على الفور ، فقد كان هناك الجناح الآخر ، الذى لم يكن مقتنعا بالسادات الا بوصفه رئيسا انتقاليا ، ولم يسكت عن ترشيحه الا لى يتم عبور تلك اللحظات الحرجة التى أعقبت وفاة جمال عبد الناصر . بسلام . وهكذا بدأت الاختلافات والمنافشات والانقسامات ، وكان الخلاف محتدما على أشده بين الجناح الناصرى التنفيذى ، الذى كان أكثر عددا وأقوى رسوخا بكثير ، وبين الجناح الساداتى ، الذى كان يتمتع بميزة هامة ، هى كرسى رئاسة الجمهورية (وهو أمر له أهميته القصوى فى نظام حكم غير ديمقراطى) ، وكذلك دهاء أقطابه وحنكتهم السياسية ، وعلى رأسهم هيكل .

المهم أن الصراع أسفر فى النهاية عن انتصار ساحق ،

وشديد السهولة ، للجناح الساداتى على الجناح الآخر الذى كان ، رغم سيطرته على أهم مرافق الدولة ومعظم التنظيمات السياسية ، يدير دفة الصراع بقصور شديد . وبعد أن حسمت نتيجة الصراع لصالح السادات فيما عرف بحركة التصحيح (وفيما بعد : ثورة التصحيح) فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، أى بعد ستة أشهر من اعتلاء السادات الحكم ، أصبح الطريق مأمونا ، وكتب هيكل مسجلا موقفه من هذا كله « بصراحة » . ومن المهم جدا أن نتابع هذا الذى كتبه هيكل فى تلك الفترة لعدة أسباب :

أولا : أن هذه الفترة تمثل منعطفًا حاسمًا فى السياسة المصرية ، تحددت فيه بالتدريج معالم الخط المميز لحكم السادات فى السبعينيات وأوائل الثمانينات .

ثانيا : أن كتابات هيكل ، بما تضمنته من حماسة شديدة للسادات ، تكشف عن العلاقة العضوية الوثيقة بين الرجلين ، وتؤكد أن هذه العلاقة كانت قائمة منذ عهد عبد الناصر ، وخرجت الى العلن عندما تخلص السادات من منافسيه .

ثالثا : أن هذا التمجيد الذى أغدقه هيكل على السادات ، حدث فى وقت كان يعلم فيه من هو السادات ، وكان يعرف تاريخه الذى رواه فى « خريف الغضب » ، والذى كان يمتد على مدى ثلاثين عاما ، من أوائل الأربعينات حتى أواخر الستينات .

رابعا : أن هذه الكتابات تتحدث فى كثير من الأحيان عن وقائع رويت فيما بعد فى « خريف الغضب » ، ولكننا نجد الواقعة الواحدة تصطبغ بلونين مختلفين كل الاختلاف : ساطع براق فى عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، وأسود قاتم فى ١٩٨٣ ، الفرق بين الاثنين ، بالطبع ، يكشف عن مستوى القيم الأخلاقية لدى أنصار مدرسة معينة فى الصحافة والسياسة ، لا تجد فى ارتداء الأتعة وخلعها ، تبعا للجهود ووفقا للمصالح ، أى عيب أو نقیصة .

خامسا : أن هذه الكتابات تثير سؤالاً على جوانب كبير من الأهمية ، هو : الى أى مدى كان هيكل ناصريا ؟

● يصف هيكل ، فى أول مقال يكتبه بعد أحداث ١٥ مايو ، أيام الأزمة فيقول : « لقد عشت لحظة التفجير ، ومن حسن الحظ أن التدمير لم يقع ، وتلك شهادة تاريخية لأنور السادات وشجاعته الأدبية والمادية فى لحظات بالغة الصعوبة والخطر » .

● « لقد كنت أول من دعاه الرئيس أنور السادات الى بيته صباح الأربعاء ١٢ مايو ولم يستدعنى بالتليفون ، كما تعود أن يفعل ، ولكنه بعث الى بكريته تسدق باب ييتى فى الصباح الباكر ٠٠٠ » (تأمل مدى التعاون والتفاهم بين الرجلين فى لحظة التحول) .

● يكتب هيكل على لسان السادات ، فى حملة الدعاية الهائلة التى شنها لدعم مركزه بعد الحركة : « ان لدى الشجاعة أن أقف أمام الملا وأقول بأعلى صوت اننى لا أريد أن أكون رئيسا لهذا البلد وفق شروط يملئها من يدعون أنهم ولاة الأمر على . اننى أعمل بضميرى ولن أعمل باملاء أحد على . وأقوى سلاح أملكه فى يدى اننى لا أتمسك بأن أظل رئيسا » .

● « كان أنور السادات فى هذه الساعة الحاسمة من التاريخ هائلا بأكثر مما يستطيع أن يتصور أو يصف أحد . كانت قراراته لمواجهة التطورات المفاجئة ، مزيجا مذهشا من الهدوء والحسم » .

● « كانت لحظة حاسمة فى تاريخ مصر ٠٠٠ وكانت لحظة رائعة نبيلة » (١) .

● يتحدث هيكل عن انتصار ذلك الذى قال عنه فيما بعد انه تولى الحكم بصدفة تاريخية غير مقصودة ، فيقول : « عشنا المحنة مرتين فى السنوات الأخيرة ، ولولا عناية الله مع جمال عبد الناصر مرة (يقصد أيام تمرد عبد الحكيم عامر بعد الهزيمة) ، وعناية الله مع أنور السادات مرة ثانية - لسقطت مصر فى أعماق الظلام والخوف » .

(١) الاقتباسات السابقة كلها من مقال هيكل الأسبوعى « بصراحة » ، بعنوان:

ماذا أقول ؟ - الأهرام ١٩٧١/٥/٢١ .

● يصف هيكل الحِوار الذى كان يدور بين السادات وخصومه فيقول : « كان أنور السادات صادقا ، ولم يكونوا صادقين » .

● « كان أنور السادات يتصرف على سجيته .. سجيته مصرى أصيل مفتوح القلب والعقل معا » .

● « حدثت المعجزة فى المرة الثانية التى استبقنا الآن من حولها بسبب أن مواطننا تحرك ضميره فذهب بأشروطه فى الليل الى رئيس الجمهورية يضع الحقيقة تحت تصرفه ، ثم كانت بعد ذلك شجاعة رجل فى موقع المسؤولية الأولى تصرف بجرأة نادرة فى لحظات خطر محقق » (٢) .

● « قال الرئيس السادات بلهجته الودودة : محبة ... ودار بيننا نقاش طويل كان فيه الرئيس كريما وحليما كمادته » (٣) .

● « هذه المرحلة هى التى ستجعل من أنور السادات - بإذن الله - قائدا تاريخيا لشعبه وأمة ، لأن القيادة التاريخية مرتبة أعلى بكثير من الرئاسة مهما كان وصفها » (٤) .

● « لقد أثبت أنور السادات ذلك عمليا فى معركته ضد مراكز القوى . كان أمامها أعزل من أى سلاح ... وكانوا أمامه ومعهم كل أدوات السلطة فى مصر . وكنسهم من فوق الأرض كنسا لأن الجماهير كانت معه » (٥) .

● ويصل الأمر بهيكل الى حد أن يمتدح فى السادات نفس المظاهر التى هاجمه من أجلها فيما بعد فى « خريف الغضب » . فنشاط السادات السياسى فى شبابه ، الذى وصف فى « الحريف »

(٢) مقال : « السؤال الأول والأكبر » - الأهرام ١٩٧١/٥/٢٨ (وجميع الاقتباسات السابقة من نفس المقال) .

(٣) « كينستر وانا » - ١٩٧٢/١٢/٢٩ .

(٤) « الخطوة الضرورية » - ١٩٧١/١١/٢٦ .

(٥) علامات على طريق طويل - ١٩٧٢/٢/١١ .

بأنه عمالة للقصر ، وفقره العائلي الذي وصف بأنه سبب عقده النفسية وعلّة تكالبه على مظاهر الترف ، كان لهما وصف مختلف تماما في عام ١٩٧٢ :

« كان أنور السادات أكثر ما يكون أمانة حين قال : انني أفهم ما يعانيه الشباب ، وأنا السنّي خرجت من طين مصر الى التمرد ، والى السجن والى التشرد ، ثم الى الثورة » . ويواصل هيكّل كلامه قائلا : « يقول أنور السادات نفسه : كنت دائما من قاع السلم الاجتماعي في مصر . من قلب الطين ، ولقد تعلمت بمعجزة ، وعندما أتممت تعليمي وجدت أن العمل الوطني أهم بالنسبة لي من أي وظيفة مسح حاجتي الشديدة الى مرتبي ... وجدت نفسي في السجن ، متهما بالتعاون مع الألمان ، وكان ذلك صحيحا ، ولكن تعاوني مع الألمان لم يكن من أجل هتلر وإنما من أجل مصر » (٦) .

أما استراحة القناطر ، التي صارت فيما بعد ، مع غيرها من الاستراحات ، نموذجا للترف الذي يتمتع به السادات على حساب الشعب ، فقد قال عنها هيكّل : « كنت على موعد مع الرئيس السادات في استراحة القناطر التي يفضل الإقامة فيها كلما استطاع ، لأنها تجعله بقرب الريف الذي يعتبره مصر الاصيلية ومصر الحقيقية » (٧) .

ان هذه الاقتباسات تغني عن كل تعليق . وحسبنا أن نقول ان الصفات المعنوية والأخلاقية للشخص الواحد لا يمكن أن تتغير في مرحلة واحدة من حياته . ولكننا عند هيكّل نجد أنفسنا ازاء ساداتين ، لا سادات واحد : أحدهما كان بطلا عندما كان هيكّل راضيا عنه وشريكا له ، والآخر كان منحرفا عندما حل « خريف الغضب » . ويظل السؤال الأهم ، بعد هذا كله ، هو : اذا كان لدينا « ساداتان » ، فكيف هيكّل هناك ؟

(٦) « قضية هذا الجبل » - ١٩٧٢/١/٢٨ .

(٧) « على هامش التطورات الأخيرة » - ١٩٧٢/٧/٢٨ .

في الحديث السابق كله كانت هناك اشارات كثيرة الى الصراع بين جناحين في ظل عبد الناصر ، والأمر اللافت للنظر هو أن كلا من الجناحين كان يؤكد أنه هو الذي يمثل تراث عبد الناصر على حقيقته . ولما كان هيكل قد انتمى ، بقلبه وقالبه ، الى الجناح الساداتى فى تلك الفترة ، فقد كان من المحتم أن يؤكد ، فى كتاباته ، أن السادات وريث الناصرية الأصيلة ، وأنه هو الذى يعبر عن مبادئها خير تعبير .

فهو يقول عن حركة التصحيح : « اننا لسنا أمام بداية جديدة ، وانما نحن على طريق الاستمرار ، والا وجدنا أنفسنا نقع فى شرك ينصبه أعداء الثورة السياسية والثورة الاجتماعية » (٨) . ويكتب هيكل عن حوار دار بينه وبين السادات حول الناصرية فيقول : « قال أنور السادات بالأمانة كلها : اننى لا أرى طريقا آخر غير طريق عبد الناصر » (٩) . ويدافع هيكل عن ناصرية السادات الأصيلة فيقول : « عبد الناصر والناصرية لا يمكن رؤيتهما من خلال ثلاثة أو أربعة أساءوا اليه واليها والى أنفسهم ، وانما يرى وترى من خلال كثيرين أحسنوا . . أنور السادات وكان هو الذى اختاره واستخلفه من بعده ، ومع أنور السادات مثا من المعاونين والمساعدين يقودون العمل المصرى فى كل الميادين » (١٠) . ويدعو شعب عبد الناصر الى الوقوف وراء السادات فيقول : « ان قيادة أنور السادات ، على طريق جمال عبد الناصر ، هى الممثل الشرعى لحركة الثورة الوطنية والقومية فى المرحلة الراهنة . وطنى أن هذه القيادة وتأيدها الى آخر المدى هو العاصم الحقيقى فى هذه الظروف من جاهلية اليمين المتخلف وجهل اليسار المخامر » (١١) .

(٨) « ماذا أقول ؟ » - ١٩٧١/٥/٢١

(٩) « حديث عن تجربة » - ١٩٧٢/١/١٤

(١٠) نفس المقال .

(١١) « علامات على طريق طويل » - ١٩٧٢/٢/١١

ولكن هيكل في الوقت ذاته كان يمهد للتغيير . وعندما كتب في نوفمبر ١٩٧٠ مقالا بعنوان « عبد الناصر ليس أسطورة » أثار ضجة كبرى لدى الفريق الآخر ، الذي كان يؤكد تمسكه بالناصرية كما وضع معالمها عبد الناصر نفسه . ولقد دار خلاف طويل بين الفريقين حول أسباب الصراع . بينهما ، وهو خلاف لا يعني هنا أن ندخل في تفاصيله أو تصدر حكما على طرفيه ، بل ان ما يعني هنا هو أن هيكل ، الذي أعلن نفسه حاميا لتراث الناصرية ، كان في تلك الفترة يقف من الناصرية موقفا يدعو الى التساؤل عن طبيعة انتمائه اليها .

فهو قد حارب الجناح « المتطرف » ، اذا جاز هذا التعبير ، وساند الجناح المعتدل ، اذا جاز التعبير أيضا ، ثم عاد في كتابه الأخير فهاجم الجناح المعتدل أيضا . وهكذا تظل الناصرية عنده هي ما يرتبط بشخص عبد الناصر فقط ، لا بأي تنظيم معين انبثق عنها .

وعندما حارب الجناح المتطرف ، هاجمه على أسس متعددة : فهو يصف أقطاب هذا الجناح بالجبل الشديد ، الى حد أنه يدون في أحد مقالاته محتويات شريط جلسات تحضير أرواح حضرها هؤلاء الأقطاب ، مع أستاذ جامعي اتخذه وسيطا ، وأخذوا فيها يسألون « الروح » عن أخطر الأمور المتعلقة بتخطيط حركتهم وتوقيتها (١٢) ، واذا صحت القصة (وأنا شخصيا غير مقتنع بها) فانها تلقي ظللا من الشك على العهد الناصري كله ، الذي كان هؤلاء يشغلون فيه مراكز القوة الحقيقية . وبالطبع لا يرى هيكل ، كمبادئه ، أن ما يقوله عن هؤلاء هو قبل كل شيء طعن في عبد الناصر ، الذي أسلم مقاليد بلده لأشخاص على هذا المستوى ، بل هو طعن في هيكل بدوره ، الذي رضى بأن يكون فيلسوفا لعهد يضم في داخله مثل هذه النوعيات .

أما تأييده للجناح المعتدل ، فكانت عواقبه وخيمة : اذ أن

(١٢) « تحضير الارواح » - ١٩٧١/٦/٤

هذا الجناح هو الذي تولى ، فى السبعينات ، القضاء على كل المقومات الرئيسية للناصرية ، كما حددها هيكل نفسه : أعنى الحياض الإيجابية والاستقلال الوطنى والتصدى للأمبريالية والصهيونية والنمو المستقل فى ظل اقتصاد مخطط . أى أن نفس المجموعة التى اختار هيكل الوقوف فى صفها ، كانت هى التى تولت تصفية الناصرية ، حسب مفهومه لها .

وحين عاد هيكل بذاكرته الى الناصرية بعد عبد الناصر ، وجد التنظيمات الناصرية مفككة وعاجزة عن العمل السرى أو العلنى ، ومفتقرة الى القيادات القادرة (١٣) . ولكن ناصريا معروفا هو « فريد عبد الكريم » يؤكد تماسك الناصرية وثبات مبادئها ، وينفى الفكرة القائلة انها تقوم على شخصية الزعيم ، مع اعترافه بالدور الأساسى الذى تلعبه هذه الشخصية . أما « عبد الهادى ناصف » ، وهو بدوره ناصرى مخلص ، ومن النماذج النقية لهذا الاتجاه ، فقد كانت معاركه مع هيكل قديمة العهد ، منذ أن نشر هيكل مقال « تحية للرجال » الذى تضمن مبالغة شديدة فى تصوير صعوبة عبور قناة السويس ، ورد عليه « ناصف » بهجوم مضاد عنيف على اتجاهات هيكل التى رأى فيها ابتعادا عن الناصرية . وما زالت المعركة بين الاثنين قائمة (١٤) .

المهم فى الأمر أن كثيرا من الناصريين المتمسكين بمبادئهم يتشككون فى ناصرية هيكل ، لأسباب عدة :

فهو قد هاجم أهم رموز الناصرية بمجرد موت عبد الناصر ، بحيث يمكن أن ينظر الى هجوم هيكل عليهم بوصفه هجوما على شئ فى صميم الناصرية ذاتها . وهو قد أبدى تأييدا لا شك فيه للتحويلات الساداتية فى السياسة الداخلية والخارجية ، خلال الفترة الحاسمة التى سبقت حرب ١٩٧٣ ، وهى التحولات التى

(١٣) انظر فصل « النزول الى العمل السرى » فى « خريف الغضب » .

(١٤) انظر لعبد الهادى ناصف مقال : « من التفسير التامرى الى المحاكمة على

الفكر والدية » - جريدة الأهرام - ١٩٨٢/١٢/٢٢ .

سنرى فيما بعد أنها تنطوى - من وجهة نظر معينة - على بذرة الاستسلام لاسرائيل وفتح الأبواب لأمريكا وتخريب الاقتصاد الوطنى باسم الانفتاح . والأهم من ذلك أنه كان من الدعائم الكبرى لحكم السادات ، فى الفترة الحرجة الأولى ، على الرغم من كل ما يعرفه عن الاختلاف الهائل بين السادات وعبد الناصر فى الشخصية والفكر والاتجاه .

وهكذا يتبرأ كثير من الناصريين المتمسكين بعقيدتهم من هيكل ، بل ويناصبونه العدا . وعندما يستعرض المرء تطوّر مواقف هيكل ، منذ بدء ارتباطه بعبد الناصر حتى اعتقاله القصير الأمد فى عهد السادات ، لا يملك إلا أن يتساءل : هل كان هناك أى أساس حقيقى لتلك العلاقة التى ارتبط فيها اسم هيكل بالناصرية ، باستثناء ولائه لشخص عبد الناصر - ذلك الولاء الذى كان فى الوقت ذاته المصدر الأول لشهرته ونفوذه ؟ سؤال أترك الإجابة عنه للناصرين أنفسهم . أما عن نفسى فأننى كلما صادفت حالة من تلك الحالات التى تسمى فيها كتابات هيكل الى عبد الناصر أبلغ الاساءة ، دون قصد منه ، فأنى لا أملك إلا أن أدعو لعبد الناصر بأن يرحمه الله من أصدقائه ، أما أعداؤه فقد كان هو ذاته كفيلاً بهم !

الفصل الثامن

الجذور

ليغفر لى الاستاذ هيكل استعارتى عنوان هذه الحلقة من كتابه ، وربما كان عذرى أنه هو بدوره قد استعارها من كتاب « اليكس هيلى » المشهور ، وكان موقفاً فى استعارتها ، لا لأن الحديث فيها كان يدور حول الأصول العائلية الأولى للسادات فحسب ، بل لأن هذه الأصول العائلية كانت ، فى حالة السادات ، مثلما كانت فى حالة بطل اليكس هيلى ، زنجية إفريقية ، كما يحرص هيكل على أن يؤكد .

ولكن الحديث عن هذه الأصول العائلية ، اقتصادية كانت أم اجتماعية أم لونية ، ليس فى رأى هو « الجذور » الحقيقية لمأساة حكم السادات ، بل اننى أود هنا أن أتحدث عن « جذور » من نوع آخر ، أهم وأعمق بكثير ، كانت تكمن فيها بذرة التطورات التالية لسياسة السادات ، وأسلوب معالجته للقضايا القومية والوطنية والداخلية . هذه « الجذور » التى حددت ، منذ سنوات حكمه الأولى ، اتجاهاته التالية كلها ، هى التى تستحق بالفعل أن تدرس بعمق .

يمثل عاما ١٩٧١ و ١٩٧٢ تحولا حاسما فى السياسة المصرية . كان عبد الناصر قد توفى فى العام السابق وترك أمورا

كثيرة معلقة ، تحتل السير في أكثر من اتجاه ، وعلى رأسها مبادرة روجرز ، التي كان قد أعلن قبوله لها قبل وفاته بشهور قلائل ، والاستعدادات العسكرية لمركبة العبور ، الذي كان قد بلغ في ذلك الحين درجة عالية من الاتقان . وعندما تولى السادات الحكم في أكتوبر ١٩٧٠ ، كان من الطبيعي أن تنقل النعمة السائدة ، لفترة ما ، هي السير على طريق عبد الناصر . فلم يكن من الممكن أن يسير الاعلام والدعاية للرئيس الجديد في أى طريق مخالف ، لأن الاعلان عن استمرار النهج السابق هو أفضل ما يمكن عمله في مثل هذه الظروف التي يختفي فيها رئيس قوى ذو شهرة واسعة وماضى طويل ، ويحل محله خلف لا يزال ، الى حد بعيد ، مجهولا ، ولا يزال الناس يشعرون بأن كرسى الحكم كبير عليه .

كانت فكرة « السير على درب عبد الناصر » هي اذن الوحيدة الممكنة في تلك الفترة الأولى ، مهما كان الاتجاه الحقيقي الذي تسير فيه نوايا الرئيس الجديد وخطته . ولكن بعد حركة مايو ١٩٧١ ، التي تخلص فيها السادات بضربة واحدة من خصومه الذين شكلوا « جناحا آخر » مناوئا له ، طوال الشهور السبعة الأولى من حكمه ، بعد هذه الحركة أصبح للرئيس الجديد من حرية الحركة ما يسمح له بأن يبدأ تطبيق أفكاره الخاصة . ولكن الحكمة كانت تقتضى أن يسير كل شيء بتدرج شديد ، بحيث يبدو في أول الأمر أن كل شيء سيبقى على حاله ، ثم تطرح الأفكار الجديدة بصورة عابرة في البداية ، لمجرد التمهيد ، وبعد ذلك يبدأ الانحياز تدريجيا على هذه الأفكار الجديدة ، ومن الممكن أن تظل هذه معاشية للأفكار القديمة وقتا ما ، ولكن هذه الأخيرة تزدل شيئا فشيئا ، الى أن يتبدل الاتجاه الجديد ، ويحتل الميدان وحده ، في نهاية الأمر . كل شيء اذن ينبغي أن يتم ببطء ، وحذر ، وتدرج ، ولكن الهدف واضح ، ومحدد مقدما ، وهو تحويل الاتجاه السياسى في مصر تحويلا جذريا . ولا بأس من الاستشهاد ، في عملية التحويل هذه ، بعبد الناصر على الدوام ، وخاصة اذا كان ذلك على صورة حديث

خاص أو أقوال أدلى بها لهذا الشخص أو ذاك ، ما دام الموتى لا يستطيعون التكذيب . فالاستعانة بعبد الناصر في عملية التحول ضد سياسة عبد الناصر ، هي أسلم الوسائل وأضمنها لتحقيق التغيير المطلوب بهدوء وسلاسة ، بحيث لا يشعر الناس به الا بعد أن يكون قد تم .

في هذا التحول المخطط ، المرسوم بذكاء وبراعة ، كان من الطبيعي أن يكون للجهاز الاعلامي ، الذي يتربع على قمته هيكل ، دور أساسي : اذ أن الاعلام هو الذي يهيئ عقول الناس للتغيير ، وهو الذي يمد الطريق للسياسات المرسومة . ولو تتبع المرء خط السير الذي سلكته كتابات هيكل في هذه الفترة لوجد المخطط المرسوم للتحول ينفذ فيها ببراعة هائلة ، وبتدرج بطيء ولكنه محدد الاتجاه ، ولتبين له أن عملية تهيئة الأذهان للتغيير قد اكتملت على عاتق هيكل ، الذي اضطلع بها بكفاءة عالية .

فما هو هذا التغيير الذي كان يراد في السياسة المصرية ؟ كانت هذه السياسة ، في السنوات الواقعة بين هزيمة ١٩٦٧ وموت عبد الناصر في سبتمبر ١٩٧٠ ، تتلخص في الاعتماد المتزايد على المساعدة السوفيتية ، اقتصاديا وعسكريا بوجه خاص ، ولم يكن هناك مفر ، في ظروف تلك الفترة ، من سلوك هذا السبيل . ذلك لأن أمريكا كانت ، قبل حرب ٦٧ وبعدها ، قد انحازت كلية لإسرائيل ، وكانت شحنات الأسلحة المرسلة اليها ، والتي زادت قوتها على قواتها الأصلية ، تستهدف منذ ذلك الحين ان تصبح إسرائيل متفوقة عسكريا على الدول العربية مجتمعة . وكان الحل الوحيد هو الاعتماد على الطرف المضاد في الصراع العالمي من أجل الحصول على أسلحة تعوض التفوق الإسرائيلي . وهكذا خلقت ظروف الفترة نفسها ، والهدف الذي حددته السياسة المصرية لنفسها فيها ، وهو ازالة آثار العدوان ، خلقت وضعا يحتم مواجهة السلاح الأمريكي المتدفق على إسرائيل بسلاح سوفيتي ، دون أن يعني ذلك ، بأي حال ، انحياز مصر كليا أو جزئيا الى المعسكر

الشيوعي . ولذا شاع عندئذ استخدام تعبير « الصداقة » في وصف العلاقات المصرية السوفيتية ، وتعبير « الاتحاد السوفيتي الصديق » ، وكان ذلك يقتضى فى المقابل زيادة حدة اللهجة المعادية لأمريكا . ومع ذلك فإن السياسة الرسمية لم تغلق أبواب الاتصالات مع أمريكا ، بوصفها قوة عظمى ينبغي أن يعمل لها حساب ، وإن كان الأمل فى ممارستها ضغطا على إسرائيل من أجل الانسحاب كان فى هذه الفترة شبه مفقود . وفى السنة الأخيرة من حياة عبد الناصر ازداد الحضور السوفيتى فى مصر ، للرد على الغارات الإسرائيلية التى كانت قد توغلت الى أعماق البلاد . وعندما زار عبد الناصر موسكو سرا فى يناير ١٩٧٠ ، كان هو نفسه الذى طلب حضور السوفيت للدفاع عن العمق المصرى عن طريق الصواريخ المضادة للطائرات ، ووافق السوفيت بعد تردد ، وكان حضورهم هو الذى أوقف الغارات الإسرائيلية على الأهداف المدنية فى مصر ، ولولا ذلك لشهدت المدن المصرية تخريبا واسع النطاق .

كانت هناك إذن حاجة حيوية الى وجود السوفيت والى الأسلحة السوفيتية ، يقابلها تصعيد متزايد للهجة العداء ضد الولايات المتحدة . وعندما اعتلى السادات الحكم ، كان من الطبيعى أن يواصل السير ، أول الأمر ، فى هذا الطريق ، لا سيما وأن الوجود السوفيتى كان حتى ذلك الحين ضرورة حيوية لحماية الأهداف المدنية فى مصر . ولكن السياسة المرسومة ، فى المدى الطويل ، كانت هى التباعيد التدريجى عن السوفيت ، وطرح فكرة إمكان التفاهم مع أمريكا ، ثم الدعوة الى الكف عن معاداة أمريكا لأن من الممكن « تحييدها » فى الصراع العربى الإسرائيلى . وبالتدريج تنهيا العقول للنتيجة المطلوبة ، أعنى إنهاء الوجود السوفيتى فى مصر ، وهو المطلب الأساسى لأمريكا ، بحجة أنه يساعد على عملية « التحييد » هذه . وعندما يطمئن الأمريكيون الى أنهم قد أصبحوا وحدهم فى الساحة ، وهم وحدهم

حلفاء الطرفين المتنازعين ، العربى والاسرائيلى ، عندئذ يمكنهم أن يسيروا بهدوء وثقة فى طريق السيطرة الكاملة على المنطقة ، وتحقيق الصلح بين الطرفين اللذين أصبحا داخلين فى نطاق نفوذ أمريكا بلا منافس .

هذا هو المخطط الشيطانى الذى رسم لمصر ، وللمنطقة العربية بأسرها ، بمجرد تولى السادات الحكم ، ولكن لنقل مرة أخرى ان التدرج الشديد كان جزءا أساسيا من نجاح الخطة . فليس من السهل أن تظل تقنع الناس ، سنوات طويلة ، بأن السوفيت أصدقاؤنا والأمريكان ألد أعدائنا ، ثم تنتقل بهم مرة واحدة الى القول بأن السوفيت هم الشياطين والأمريكان يمكن أن يصبحوا أصدقاء ، أو يمكن على الأقل « تحييدهم » . ومن هنا كان من الضروري تنفيذ أهداف هذا المخطط الطويل الأمد خطوة خطوة ، فتوضع الأسس أولا ، ثم تأتى الخطوات التالية واحدة اثر الأخرى . ولما كانت مرحلة الانتقال الأولى هى الأصعب دائما ، فقد كانت تحتاج الى حذر وبراعة من نوع خاص .

وقبل أن نعرض المراحل التى مرت بها هذه الخطة ، دعونا نتأمل تقييم هيكمل الأخير ، فى « خريف الغضب » وفى غيره من كتاباته القريبة العهد ، لما حدث فى هذه المرحلة .

ان هيكمل يتحدث بطريقة يصفها بأنها « منصفة » عن دور السلاح السوفيتى فى هذه المرحلة ، فيقول : « فى الحقيقة ، وللانصاف ، فان الاتحاد السوفيتى لم يقصر فى معاملة مصر أثناء حرب أكتوبر أو بعدها مباشرة . ولا يمكن لأحد أن يتجاهل - بصرف النظر عما قيل ويقال - ان كل ما تحقق فى حرب أكتوبر تحقق بسلاح سوفيتى . وبعد حرب أكتوبر مباشرة فسان الاتحاد السوفيتى قدم لمصر ٢٥٠ دبابة من طراز « تى يو ٦٢ » هدية تعويضا لها عن خسائر الحرب ، كما أنه باع اليها فيما بعد ثلاثة أسراب من طائرات ميج ٢٣ المتطورة . ومع ذلك فقد كانت مكافاته هى استبعاده من مؤتمر جنيف فى ديسمبر ١٩٧٣

وفي أبريل ١٩٧٤ كان السادات عنيفا في هجسومه على الاتحاد السوفيتي بأنه قصر في التزامه بتعويض مصر عن كل خسائرها في القتال ، دون أن يشرح الأساس الذي جعله يتصور أن هناك التزاما سوفيتيا بتعويض مصر عن خسائرها . ثم يجرى هيكل مقارنة بين ما اشترته مصر من الاتحاد السوفيتي على مدى عشرين عاما (٧٥/١٩٥٥) وقيمته ٢٢٠٠ مليون روبل ، دفعت منها ٥٠٠ مليون روبل وبقي عليها ١٧٠٠ مليون ، ودخلت بها مصر خمسة حروب : السويس واليمن وحرب ٦٧ وحرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ، أما السلاح الأمريكي فكانت قيمته ٦٦٠٠ مليون دولار في ست سنوات (٨١/٧٥) لم تدخل بها أى حرب جديدة . ولنستمع الى شهادة هيكل في حديث قريب العهد عن أضرار التسليح عن طريق أمريكا : « لقد كانوا (يقصد المملكة العربية السعودية) قلقين جدا مما يسمونه الخطر الشيوعي في المنطقة ، وكانوا يريدون اخراج السوفيت ٠٠٠ وصحيح أنهم مولوا بعد ذلك شراء أسلحة غربية ، ولكنى ممن يعتقدون أن الأسلحة الغربية لا تستطيع أن تدافع ضد إسرائيل . انها تصلح لعمليات في الكونغو أو السودان أو الصومال ، أما إسرائيل فانها ستلقى أمام كل قطعة سلاح أمريكية يحصل عيها العرب ، ما يوازئها ، بل ما يتفوق عليها ويلاشيها » (١) .

هكذا يتحدث هيكل الآن ، وحديثه الحالى يعبر ، بلا شك ، عن اتجاه وطني واضح . ومن المهم جدا أن نتذكر تفاصيل كلماته هذه ، لأننا سنعود الآن الى الوراء ونستعرض بعض الفصول القديمة ، واليامة ، لقصة علاقات مصر مع العسكريين الكبارين ، واتجاهات سياسة التسليح ، كما يرويها هيكل بنفسه في فترة التحول الذي تحدثنا عنها منذ قليل . وكم أود أن يتنبه القارئ الى آراء هيكل في هذه الفترة الحاسمة ، إذ أن أمورا عظيمة الأهمية كانت تتقرر عندئذ ، وبذور الشجرة التي « أنمرت » في زيارة

(١) حديث هيكل مع صلاح عيسى - جريدة الأهرام ١٩٨٣/٤/٢٧ .

١٩٧٧ ومعااهدة ١٩٧٩ وتحالف حكومة مصر مع أمريكا من أجل خدمة الأهداف الأمريكية في مختلف مناطق العالم الثالث - هذه البذور كانت تغرس في تلك الفترة التي سنتحدث عنها ، ببطء ، وذكاء ، وتدرج ، ولكن مع ادراك واضح للهدف البعيد . وسوف اكتفى في معظم الأحيان باقتباسات مباشرة مما كان يكتبه هيكل في ذلك الحين ، مع تعليقات هنسنا وهناك للكشف عن تسلسل التفكير وتغير اتجاهه ، وفي ظني أن أقوال هيكل وحدها تغني عن كل تعليق ، وأن القراءة الذكية لها تكشف للقارئ عن كل شيء .

فلنبداً بما كان يقوله هيكل في عام ١٩٧٠ . وقد اخترت هذا العام لأنه آخر الأعوام التي كان هيكل يكتب فيها خلال حكم عبد الناصر ، أي أنه كان هنا يعرض آراءه السياسية في الوقت الذي كانت فيه سياسة الدولة الرسمية تؤيد بقوة التسليح مسن الاتحاد السوفييتي ، وتعتبر الصداقة المصرية السوفييتية عاملاً أساسياً في صمود مصر وتمكينها فيما بعد من إزالة آثار العدوان ، بينما تنظر الى الولايات المتحدة على أنها العدو الرئيسي الذي كان أكبر عوامل هزيمتنا في حرب ١٩٦٧ . فكيف كان هيكل يكتب في هذه الفترة ؟

● « ما زالت هناك بين قوى القومية العربية عناصر تنسى إسرائيل لكي تغرق نفسها في حرب مقدسة مع الشيوعية ، بينما الدول الشيوعية هي التي وضعت سلاحها في يد العرب ولولاه لما كان هناك أمامهم بديل عن الاستسلام » (٢) .

● « منذ يونيو ١٩٦٧ . . . فإن دور الاتحاد السوفييتي وأثر هذا الدور هو الذي ساعد الأمة العربية على تحقيق ارادتها بالصمود ضد الأزمات الواقعه الذي حاول تحالف الاستعمار والصهيونية فرضه عليها عسكرياً » .

(٢) مقال : « ان متى الضباب ؟ » الأهرام ١٦/١/١٩٧٠ .

● « المناورة الأمريكية واضحة أمام أى عربى . فهى تريد عزل العرب عن الاتحاد السوفييتى لا لكى يخرج الصراع العربى الاسرائيلى من نطاق الحرب الباردة بين القوى الكبرى ... ولكن لكى يبقى الطرف العربى تحت رحمة الامر الواقع الذى يفرضه السلاح الأمريكى الذى تمسك به اسرائيل » .

● « الاتحاد السوفييتى له دور فى الشرق الأوسط بحكم صداقته للعرب ، وهو دور أوجده العرب بأنفسهم قبل أن يوجده الاتحاد السوفييتى لنفسه - ردا على دور الولايات المتحدة وارتباطها باسرائيل » (٣) .

● « دور الاتحاد السوفييتى الكبير والمخاطر ليس فقط فى إعادة تسليح الجيش المصرى ولكن أيضا فى ارسال المئات من خبرائه للمشاركة فى إعداد الجيش المصرى للقتال على مستوى الحرب الحديثة . وهو بهذا يسجل سابقة جديدة فى التاريخ ، لأن الاتحاد السوفييتى بهذه السابقة كان أول بلد أوروبى يبعث بالمسكرين من أبنائه الى أرض آسيوية وأفريقية ، لا لكى يسيطروا ويستعمروا .. ولكن لكى يساعدوا هذه الأرض ... على محاربة السيطرة والاستعمار » .

« لماذا يتخذ الاتحاد السوفييتى هذا الموقف المؤيد لنا ؟ الرد : أن الأمر بالنسبة للاتحاد السوفييتى مسألة مبدأ ، وهو عداء الاستعمار » (٤) .

أما عن أمريكا فيقول هيكل فى هذه الفترة نفسها :
● « ان الولايات المتحدة صرحت لاسرائيل باستخدام طائرات الفانتوم فى غارات بالعمق ضد الاراضى المصرية ، ولم تكن اسرائيل تستطيع أن تفعل ذلك الا بتصريح أمريكى واضح » (٥) .

(٣) الاقتصادات الثلاثة السابقة من مقال « أزمة الشرق الأوسط » ١٩٧٠/٣/٢٠

(٤) « ما هو الاختلاف والتحالف ؟ » ١٩٧٠/٨/١٤ .

(٥) « المائة يوم القسامة » - ١٩٧٠/٢/١٣ . ويلاحظ أن « المائتين »

الرئيسى لهذا العدد كان حول غارة اسرائيل على مصنع أبو زعبل ، حيث قتل وجرح عدد كبير من العمال ، وكان العنوان « الجريمة الاسرائيلية الأمريكية » .

- « ان العلاقة بين اسرائيل والولايات المتحدة وصلت الآن الى الحد الذى لم تعد فيه السياسة الأمريكية قادرة على أن تظهر أو تمارس أى قدر من الاستقلال عن الارادة الاسرائيلية » (٦) .
- ويشير الى موقف أمريكا فيصفه بأنه « التمسك باستمرار تفوق اسرائيل فى قوة النيران على كل ما لدى العرب مجتمعين من قوة النيران » (٧) .
- « ان السياسة الأمريكية المعنة فى عدائهما للعرب ، والمعنة فى تحيزهما لاسرائيل ، استمرت على مدى عهدين (جونسون ونيكسون) من سنة ١٩٦٧ حتى الآن ٠٠٠ ومعنى ذلك ان هناك تخطيطاً أعلى من أن تغيره اختلافات اليهود أو الأحزاب أو الرئاسات » . ثم يقتبس هيكل فى المقال نفسه أقوالاً ويشير الى أحداث تحيزت فيها أمريكا ضد العرب بوضوح ، ويعلق على ذلك قائلاً ان هذه الوقائع « تستطيع أن ترد على دعوى السياسة الأمريكية المتوازنة » (٨) .
- ويحدد هيكل أهداف أمريكا فى المنطقة فيقول فى نص هام « ماذا تريد الولايات المتحدة من الشرق الأوسط ؟ » .
- « أولاً : اخراج الاتحاد السوفييتى من المنطقة ، منع تجنب المواجهة المباشرة معه فى نفس الوقت » .
- « ثانياً : الاحتفاظ باسرائيل قوية فى الشرق الأوسط ، قادرة على القيام بدور حارس المصالح الأمريكية فى المنطقة » .
- « ثالثاً : ابقاء العالم العربى فى حالة من الضعف يسهل معها على الولايات المتحدة تأمين مصالحها » .
- « رابعاً : تحديد دور مصر فى المنطقة ، أو بعبارة أوضح حصار دور مصر » .
- « هذا هو مجمل مطالب الولايات المتحدة فى منطقة الشرق

(٦) « السياسة الأمريكية والارادة الاسرائيلية » - ١٩٧٠/٢/٢٠ .

(٧) « المسند ٠٠ وفى يد من هو ؟ » - ١٩٧٠/٣/٦ .

(٨) « رسائل على الطبول الأفريقية » - ١٩٧٠/٣/١٣ .

الأوسط . . . في عالم السبعينات » .
 ثم يذكر هيكल القراء بعبارة هامة قالها كيسنجر : « اننا
 يجب أن نطرد expel الاتحاد السوفييتي من منطقة الشرق
 الأوسط بكل الطرق والوسائل » ويعلق عليها بقوله : « ومن المهم
 لنا جدا أن نتذكر ذلك ، وأن لا يغيب عنا معناه » (٩) .
 هذا ما كان يقوله عن السوفييت وأمريكا في الأشهر الأخيرة
 من حياة عبد الناصر ، ومن المهم أن نؤكد المعاني الرئيسية التي
 كان يدعو اليها عندئذ : لا غناء لنا عن الاتحاد السوفييتي في
 التسليح - صداقة السوفييت مسألة مبدأ ، لا مسألة مصالح -
 العرب ، ومصر بالذات ، هم الذين طلبوا التواجد السوفيتي ،
 الذي لم يفدهم في التسليح فقط ، بل في التنمية أيضا - أمريكا
 تحرص على بقاء إسرائيل أقوى من العرب أجمعين - الإرادة
 الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الإرادة الاسرائيلية -
 عداة أمريكا للعرب هدف دائم ، يتجاوز العبود والرياسات -
 سياسة التوازن بين العرب واسرائيل هي ، في نظر أمريكا ،
 خرافة - أول أهداف أمريكا هو اخراج السوفييت من المنطقة ،
 ثم تقوية اسرائيل واطعاف العرب ، ثم حصار مصر وعزلها عن
 العرب ، وهذه الأهداف ليست مرحلية بل هي أهداف السبعينات
 كلها .

فلنتأمل بعد ذلك ما قاله هيكل في السنتين الأوليين من
 عهد السادات : ولنتذكر ما قلناه من قبل ، من أن الخطة - خطة
 التحول الحاسم - ينبغي أن تكون شديدة التدرج : فهناك شعب
 مهيبا ذهنيا لأفكار كتلك التي لحصنها من قبل ، وهناك تسليح لا
 يمكن الاستغناء عنه بين يوم وليلة ، وهناك اقتصاد كان لا يزال
 مرتبطا بالمساعدات السوفيتية الى حد بعيد . لذلك كان من

(٩) « أمريكا .. نظرتها الى الأزمة واسلوبها » - ١٩٧٠/٩/١١ .

الطبيعي ألا تنكشف الأوراق مسرة واحدة . فبعد حركة
النصحيج في مايو ١٩٧١ مباشرة ، كن المطلوب هو تنفيذ حجة
الجناح الذي كان معاديا للسادات ، والذي عبر عنه الفريق فوزي
بقوله ان السادات « يبيع البلد للأمريكان » ، ولذلك كان من
الضروري الاستمرار في الضرب على النغمة السابقة ، النغمة
الناصرية ، بعض الوقت ، لا سيما وأن السوفييت يدأوا
ينزعجون . . وهكذا كتب هيكل يقول : « أقول بأمانة وصراحة
أنه لولا الاتحاد السوفييتي لما كان أمامنا خيار غير القبول بشروط
المنتصرين كما حدث سنة ١٩٤٨ . وقيمة الصداقة العربية
السوفييتية أنها ليست صداقة ظروف . أي أنها ليست صداقة
تكتيكية ، وإنما هي - كما كان يقول جمال عبد الناصر - صداقة
نشال ضمن الجبهة العالمية المعادية للاستعمار ، ونضال من أجل
الحرية والتقدم . . وانصافا للاتحاد السوفييتي فإن تعامله مع
جمال عبد الناصر ومع أنور السادات بعده كان تعامل الشرفاء .
ومن الحق أن يقال أنه لا يمكن أن يكون هناك مصري يحترم
مصريته أو عربي يحترم عروبتة الا ووجد نفسه صديقا للاتحاد
السوفييتي » (١٠) .

الرسالة التي يريد هيكل أن ينقلها الى السوفييت هنا هي :
اطمنوا . . . لقد قضينا على أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم
أنصاركم ، ولكننا ما زلنا أصدقاء بقوة .
ولكن مخاوف السوفييت أخذت تزداد بعد الدور الأساسي
الذي لعبته القوات المصرية في احباط انقلاب هاشم عطا
(اليساري) في السودان ، ولذلك يحاول هيكل طمأنة مخاوفهم
(لأن الوقت لا يزال مبكرا للتخلص منهم) ، فيبدأ مقاله بقوله :
« لا يمكن لأحد أن يتهمني بمسألة الاتحاد السوفييتي ، بل ان
عناصر من داخل الاتحاد السوفييتي أو موالية له بالفعل أو بالادعاء

(١٠) « ماذا أقول » - ٢١/٥/١٩٧١ .

رمتني مرات بممالة أمريكا لأنني طالبت بعدم التصادم والتناطح معها بالقوة-» « نان همس عناصر السلطة (يقصد الجناح الناصري الآخر) ولأهداف صراعهم من أجلها أن أنور السادات قد عقد صفقة لحل الأزمة من وراء ظهر الاتحاد السوفييتي ٠٠٠ حتى توحى للاتحاد السوفييتي بأن أنور السادات يستعمله كورقة في لعبة وليس صديقا في نضال» (١١) .

ورغم محاولة الترضية الواضحة ، فان هذا الاقتباسي يهمننا في امرين :

الأول هو وجود تلميح الى موقف جديد من أمريكا تعرض هيكل بسببه للوم من بعض الجهات ، وان كان هيكل لا يزال يؤكد ، حتى ذلك الحين ، أن كل شيء على ما هو عليه .

والثاني هو وصف هيكل للسادات في عام ١٩٧١ بأنه صديق للسوفييت في النضال - نفس السادات الذي عرض علينا هيكل في « خريف الغضب » تفاصيل عن ماضيه مع أجهزة المخابرات المختلفة المتصلة بالأمريكيين اتصالا مباشرا أو غير مباشر .

ثم تزداد التلميحات وضوحا بالتدريج ، مع الاحتفاظ بالموقف القديم (مؤقتا) . فهو في هذه المرحلة لا يزال يؤكد أن « الهدف الأكبر الذي تسعى اليه اسرائيل والولايات المتحدة هو اخراج العامل السوفيتي كله تأثيرا وتواجدا في أزمة الشرق الأوسط ، لأن هذا العامل هو أهم القوى الضاغطة ، وإذا لم ندرك ذلك ، وإذا لم نعمل على مواجهته - اذن فنحن نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضة » (١٢) . ومع ذلك فان في المقال نفسه اشارات واضحة الى أن من الممكن أن يتوقف امداد أمريكا لاسرائيل بالسلاح ، لو أن العرب لعبوا لعبة التوازنات

(١١) « مرة أخرى : العلاقات العربية السوفيتية » - ١٩٧١/٨/٢٧ .

(١٢) « شهور مضت ، وشهور قادمة » - ١٩٧١/٦/٢٥ .

والحسابات ، والعقبة الرئيسية في وجه هذه الخطوة ، من وجهة نظر أمريكا ، هي التواجد السوفييتي . وهكذا تنتقل الى موقف جديد ، فبعد أن كان الموقف السابق هو : لا أمل من أمريكا ، أصبح الآن : هناك أمل ، بشرط أن نعرف قواعد اللعبة .

وفي الوقت ذاته كانت فكرة « تحييد أمريكا » قد بدأت تظهر في كتابات هيكل منذ أوائل عام ١٩٧١ ، أي بعد حوالي أربعة أشهر من تولي السادات السلطة . فهو يتحدث - في فبراير من هذا العام - عن ضرورة الاقتداء بإسرائيل في تحقيق أهدافها خطوة خطوة ، بحيث يكون هدفنا الحالي هو إزالة آثار العدوان ، ثم يعلق على ذلك بقوله : « ومن المحتمل أيضا ، وبجهود متواصل وعاقلة ، أن الولايات المتحدة يمكن تحييدها بشكل ما ولو جزئيا أثناء تحقيقه ، وان كان ذلك متداخلا في أوضاع وظروف قد تقتضي شرحا أوسع » (١٣) . وفي المقال التالي يزيد فكرته ايضا فيقول : « اذا أردنا ان نصل بنتيجة ما حدث سنة ١٩٦٧ الى نجاح يماثل نجاحنا سنة ١٩٥٦ فاننا يجب ان نحصل على عنصرين : أولهما تأييد احدى القوتين العظميين ، وذلك متاح لنا بتعاطف وصداقة وتأييد الاتحاد السوفييتي . والثاني تحييد القوة العظمى الأخرى ، وهي الولايات المتحدة ، أو على الأقل منع تدخلها ضد مصلحتنا في الازمة ، وغير ذلك مستحيل » (١٤) . ثم يأتي بعد ذلك كلام أخطر : « من هنا فلقد كنت ، وما زلت ، اختلف مع النغمة التي تقول ان الذي نواجهه أمامنا في ميدان القتال هو الولايات المتحدة وليس اسرائيل (لاحظ أنه كان يقول بعكس ذلك تماما منذ عام) . والصحيح أن بيننا وبين الولايات المتحدة مواجهة سياسية ، أو صراعا سياسيا ، وهدف هذا الصراع هو الفصل بين اسرائيل والولايات المتحدة كحد أقصى ، أو تحييد الموقف الأمريكي تجاه اسرائيل كحد أدنى ، وذلك عن طريق توجيه ضغط دولي وعربي

(١٣) « من الاقتناع بإمكانية تحقيق هدف » - ١٩٧١/٢/٢٦

(١٤) « التضاريس في الطبعة وفي السياسة » - ١٩٧١/٣/٥

ومصرى ضد الولايات المتحدة . . . هذا الضغط . . . يقمع الولايات المتحدة . . . بأنها تواجه تقلصا مخيفا فى هيبته كقوة عظمى ، والهبة على رموس الدول العظمى كالتيجان القديمة على رموس القياصرة ، . وبعد قليل يحدد الهدف من صراعنا مع الولايات المتحدة ، بأنسه « ليس هزيمتها فى ميدان القتال ، وانما اخراجها ، وبكل وسيلة ، من ميدان القتال » . « وأقول اننى استطيع ان أجد طريقا يقدر به الشعب المصرى ان يحارب اسرائيل ويهزمها . . ولكن ذلك يتطلب ان تكون الولايات المتحدة بعيدة عن ميدان القتال » .

ان تصعيد لهجة « تحييد أمريكا » كان يزداد طبوال عام ١٩٧١ ، وكانت المغالطة التى ارتكبها هيكل مزدوجة : فبعد أن كان أيام عبد الناصر يربط بين أمريكا واسرائيل بحيث يستحيل فصلهما ، وبعد أن كان يؤكد أن هدف أمريكا الدائم والاستراتيجى هو اضعاف العرب من أجل هدمهم ، أصبح الآن يقدم الى القارىء ، فى جرعات خفيفة أول الأمر ، ثم تزداد كميتها بالتدريج - فكسرة امكان تحييد أمريكا وايقاف فاعليتها فى مؤازرة اسرائيل ، بل ويرى ان الحرب بدون ذلك مستحيلة . ولكن اذا ادركنا مدى استراتيجية التحالف بين أمريكا واسرائيل ، واذا ادركنا أن أمريكا لا بد ان تعمل ما من شأنه منع العرب ، بشتى الطرق ، من أن يكتسبوا القدرة اللازمة لممارسة الضغط عليها ، لوجدنا الى أى حد تؤدى « وصفة » هيكل الجديدة « لهزيمة » اسرائيل الى طريق مسدود .

والى هذه الفترة ينتمى مقال « تحية للرجال » المشهور (١٢ مارس ١٩٧١) الذى بالغ فيه هيكل ، وكأنه جنرال خبير فى ميدان القتال ، فى وصف الصعوبات المميتة التى سيصادفها الجيش المصرى لو حاول عبور قناة السويس التى هى أخطر مانع مائى فى العالم ، وتحدث عن القوة الهائلة للجيش والطيران الاسرائيليين ، وكيف ان العبور يجعل جيشنا « يواجه ما لم يواجهه جيش من قبل » . ولم تكن عملية التخويف هذه الا جزءا من السياسة الجديدة ، فلم يكن من المستغرب إذن أن يثور عليه انصار السياسة الناصرية السابقة ثورة

عامرة .

ولنختتم هذا العرض لفكرة التحييد بصبارات تظهر فيها اتجاهات هيكل الجديدة ، التي استدارت بزواية ١٨٠ درجة عن اتجاهاته منذ عام واحد ، بوضوح كامل : « اذا كانت اسرائيل قد انتصرت على العرب في معارك بفعل التأييد الأمريكي فان هذا التأييد الأمريكي ليس دائما ، وانما الدائم هو المصالح الأمريكية فقط . . ومن هنا فان التأييد الأمريكي ليس سلاحا أبديا في يد اسرائيل ، وهذه عبرة الأيام » (١٥) .

وفي العام التالي حدثت الخطوة الحاسمة ، التي ظهرت فيها معالم السياسة الجديدة بلا مواربة ، والتي تعد الكتابات السابقة تمهيدا متدرجا لها ، وأعني بها طرد الخبراء السوفييت من مصر في يوليو ١٩٧٢ . هنا نود أن نذكر القارئ بالاختبارات التي تعمدها أن نكرها من قبل ، والتي تبين ان هيكل كان واعيا تماما بأن طرد الخبراء السوفيت هو هدف السياسة الأمريكية في المنطقة وبأننا اذا لم نواجه ذلك فكأننا « نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضة » ولكنه ، في ظل السياسة الجديدة ، لا يجد أية غضاضة في أن يحمل طبق الفضة بيديه ، ويبتلع كلماته ومواقفه السابقة بسهولة تامة ، ويساعد « العدو » على تحقيق مطلبه بكل ما يملك من قدرة وموهبة ، فعين خرج السوفيت بالفعل ، لم يقل لنا هيكل كلمة واحدة عن تأثير ذلك على الولايات المتحدة ايجابيا ، ولم تصدر عنه كلمة واحدة يقول فيها اننا كنا نستطيع استثمار هذا الطرد لصالحنا ، كما أصبح يقول في أيامنا هذه ، ولم يوجه كلمة نقد واحدة ، بل انه ، على العكس من ذلك ، اخترع قصة اعتقاد الاتحاد السوفيتي بوجود فراغ عقائدي في المنطقة ، واستعرض ، بلا مناسبة ، ولجرد التحرش بالخصوم الجدد وتبرير سياسة السادات الجديدة ، تاريخ الخلافات العقائدية مسج السوفيت منذ الستينات ، وكلها أمور حشرت حشرا بصورة ملفقة ،

(١٥) « العام الحاسم ومركز السادات » - ١٩٧١/١١/٧ .

اذ أن هذه الخلافات لم تمنعه ، أيام عبد الناصر ، من امتداح السوفيت المبالغ فيه . والأخطر من ذلك أن هيكلم يذيع سرا (يؤكد أنه لم يكن سرا ، وإن كان معظم الناس لم يعرفوه الا عن طريقه) هو أن خمس طائرات سوفيتية كانت قد سقطت فى يوم واحد ، هو ١٨ ابريل ١٩٧٠ (١٦) . وكان الهدف من هذا الاعلان ، الذى بلغ قمة التنكر لتلك « الأفضال » التى كان يسبح بحمدها من قبل ، هو التشكيك فى قدرة الطيارين السوفيت ، ولا مانع لديه من تحطيم معنويات جيشه وأبناء وطنه عن طريق اعلان تفوق اسرائيل الى هذا الحد حتى على السوفيت .

ويكمل هيكلم حملته على السوفيت ، الذين كان يتخزل فيهم قبل أقل من عامين ، والذين يدعوننا الى الندم على فقداننا لصداقتهم فى أيامنا هذه ، فينشر وثيقة « سرية » (لا أدري من أين حصل عليها ، وأتمنى أن يثبت لنا فى هذه الأيام ان كانت صحيحة أم ملفقة) هى تقرير لجنة داخل الحزب الشيوعى السوفيتى عن برنامج الحزب الشيوعى السورى ، وفى التقرير تشكيك فى القومية العربية وامكانية الحل العسكرى أو قيام الدولة الفلسطينية . ولا ينسى هيكلم ان يقلل من قيمة السلاح السوفيتى ، مؤكدا انه « كان متأخرا عن الولايات المتحدة فى هذا المضمار سبع سنوات » (١٧) .

ومن اللافت للنظر أن هيكلم قد استخدم ، فى هذه الحملة على السوفيت ، نغمة أصبح السادات فيما بعد يستخدمها على أوسع نطاق لاثارة مشاعر الشعب المصرى ضد بقية الشعوب العربية عندما حدثت المقاطعة بعد زيارة القدس ، وأعنى بها نغمة « مصر أولا » . فخروج السوفيت « حرك نبض الوطنية المصرية » ووضعها فى موضع الاعتماد على النفس (١٨) .

نفس خروج السوفيت الذى كان منذ قليل يوصف بأنه مطلب

(١٦) « الحوار المطلوب والضرورى » - ١٩٧٢/٨/١١

(١٧) « فى موسكو أيضا : وقفة موضوعية مع صديق » - ١٩٧٢/٨/١٨

(١٨) انظر الهامش رقم (١٦) .

العدو ، وهدف السياسة الأمريكية الأول .. وهو في موضع آخر يتحدث عن خطأ السوقيت لأنهم « لم يدركوا قيمة مصر الحضارية ، ولم يدركوا أن مصر هي مصر ، وسوف تبقى دائما مصر » (١٩) .

كان التحول قد اكتمل وكانت الحلقة قد اغلقت بأحكام ، وتحول الصديق الذي وصف قبل ذلك بأنه تعامل مع عبد الناصر والسادات معاملة الشرفاء ، والذي « لا يوجد مصري يحترم مصريته ، ولا عربي يحترم عربته الا وكان صديقا له » - تحول الى عدو لحضارة مصر ، وأصبح خروجه علامة على الوطنية ..

وعندما وصل هيكل في كتابته الى هذه المرحلة ، استأذن القارئ ليأخذ أجازة لمدة شهر من الكتابة (٢٠) ..

كان مدركا انه أكمل مهمته ، وذهب ليستريح .

والآن ، دعونا نلق نظرة هادئة على تلك الكلمة ذات المظهر البريء ، التي كانت الخطوة المتدرجة ، الشديدة الحذر والذكاء ، تستهدف اقناع الأذهان بها ، واعنى بها كلمة « تحييد أمريكا » .

هذه الكلمة تلخص هدف السياسة الجديدة كلها : فبينما كان هيكل يؤكد ، في ظل سياسة عبد الناصر ، أن أمريكا لا تقل عداء لنا عن إسرائيل ، وأن مصالحهما مرتبطة ارتباطا عضويا يستحيل تفكيكه ، وأن الأمور وصلت الى حد أن الإرادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الإرادة الإسرائيلية ، وأن دفاع أمريكا عن إسرائيل وسعيها الى اضعاف الدول العربية انما هو سياسة دائمة وليس على الاطلاق وضعا مؤقتا - بينما كان هيكل يؤكد ذلك كله ، أصبح في عام ١٩٧٢ يركز جهوده على طرح هذا المفهوم الجديد ، الذي يتناقض كلية مع المفاهيم السابقة ، واعنى به مفهوم « التحييد » ، ويعنى به كف يد أمريكا عن التدخل لصالح إسرائيل ضد العرب . فلنحلل

(١٩) انظر الهامش رقم (١٧) .

(٢٠) في مقال ١٨ أغسطس ١٩٧٢ .

اذن هذا المفهوم ، ونستخلص نتائجه •

ان لعملية التحييد هذه وسيلتين :

الأولى هي تنمية القوة الذاتية العربية ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، الى الحد الذى تضطر فيه أمريكا الى أن تعمل حسابا لقوتنا ، وخاصة حين تصل هذه القوة الى حد تهديد المصالح الأمريكية فى المنطقة • فكيف تتحقق لنا مثل هذه القوة ؟ من الواضح انها ، لكى تصل الى الحد الذى تشكل فيه تهديدا حقيقيا ، وليس مجرد تهديد مظهرى أو مؤقت ، لمصالح أمريكا ، تحتاج الى تغيير شامل فى نمط الحياة فى العالم العربى وفى أساليب حكمه • ولو وصلنا بالفعل الى مثل هذا التغيير ، فلن نكون عندئذ بحاجة الى تحييد أمريكا ، لأننا عندئذ نستطيع أن ننتزع حقوقنا بأيدينا ، شامت أمريكا أم أبت • وأبلغ دليل على ضخامة حجم التغيير ، السياسى والاقتصادى والعسكرى ، المطلوب تحقيقه فى مجتمعاتنا من أجل الوصول الى تحييد أمريكا ، ان هذا التحييد لم يتحقق حتى عندما وصل التضامن العربى ، عسكريا واقتصاديا ، الى مستوى عال لم يبلغه فى أى وقت من قبل ، فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ • فقد زادت أمريكا من مساعداتها لاسرائيل أثناء الحرب ، وقدمت اليها أضخم جسر جوى من معدات القتال عرفه التاريخ ، مما اتاح لها قلب ميزان الحرب جزئيا لمصلحتها • واذن فطريق القوة الذاتية العربية المطلوب من أجل التحييد طويل جدا ، ولو بلفناء يوما ما لا أصبح للتحديد عندئذ أى داع •

أما الطريق الآخر ، فهو الطريق العكسى ، أعنى طريق الأذعان لمطالب أمريكا وتقديم الخدمات والتسهيلات لها ، وتحقيق مصالحها فى المنطقة الى الحد الذى يأمل أصحاب هذا الطريق أن يؤدى الى تخفيف انحيازها لاسرائيل ، ما دام هناك أصدقاء جدد يؤدون وظيفة اسرائيل التقليدية ، وهى حماية المصالح الأمريكية • هذا الطريق اذن لا يكمن فى تهديد مصالح أمريكا ، بل فى التنافس مع اسرائيل على حماية هذه المصالح • ونظرا الى أن الطريق السابق طويل وشاق ،

ويفترض شروطا يحتاج تحقيقها الى ثورة كاملة لو حدثت لما عدنا نحتاج الى هذا التحييد ، فان نسوع التحييد الذى يمكن تنفيذه عمليا ، فى ظروف العالم العربى الراهنة ، هو النوع الثانى ، اعنى التحييد الاستسلامى . ولهذا التحييد دائما ثمن فادح . فما الذى يدفع أمريكا الى الامتناع عن مساندة اسرائيل أو التخفيف من انحيازها لها ؟ ان اسرائيل حليف قوى ، يحقق لها مصالح ضخمة : ردع قوى التحرر فى العالم العربى ، ضمان تدفق النفط للغرب ، صد « الحظر الشيوعى » ، وعلى ذلك فالمطلوب منا أن نقوم نحن بأداء هذه الخدمات كلها لأمريكا ، حتى تدرك أن مصالحها لا تتحقق على يد اسرائيل وحدها ، لاسيما وان لدينا مزايا خاصة ، هى اتساع الرقعة جغرافيا ، واستراتيجية الموقع ، والموارد البشرية والمادية الكبيرة .

هذه هى النظرية التى تبنتها المدرسة الساداتية ، عمليا ، وكانت أولى خطواتها هى طرد الخبراء السوفيت ارضاء لأمريكا . وتلتها خطوات أخرى : منح القواعد أو التسهيلات العسكرية ، المشاركة فى بعض الحروب الصغيرة لصالح الغرب (زائير والصومال وتشاد وافغانستان وغيرها) ، تغيير اتجاه الاقتصاد بحيث يصبح رهينة للبنوك الأمريكية والدولية ، وتأكيد دور القطاع الخاص مع الاقلال من أهمية القطاع العام ، الخ . .

وهكذا يودى الجرى وراء سراب « التحييد » الى أن يصبح العرب أشبه « بالزوجة الثانية » للزوج الفنى والقوى : أمريكا . وككل زوجة ثانية ، يتعين على العرب أن يتفنونوا فى ارضاء أمريكا واغرائها بالتنازلات حتى تنصرف عن الزوجة الأولى (اسرائيل) . ومع كل ذلك فان اسرائيل القوية ، التى يتسم نظامها بالثبات ، ولا يتصف بتقلبات الأنظمة الغربية ومزاجيتها ، والتى تشارك أمريكا « ديمقراطيتها » واعتمادها على مؤسسات ثابتة ، لا على أهواء شخصية - اسرائيل هذه هى التى تكسب « الزوج » فى النهاية ، بعد أن تكون الزوجة الثانية قد أعطت أعز ما تملك !

هذه هي النتيجة التي توصل اليها سياسة « التحييد » عمليا . وقد اختبرت هذه السياسة ، كما قلت ، في حرب أكتوبر ، فكانت النتيجة مزيدا من التدخل الأمريكي لصالح إسرائيل ، مما جعل السادات نفسه يقول : أوقفت القتال لأننى لا أستطيع أن أحارب أمريكا ! ولكن المسألة هي أن نفس اللحظة التي بلغ فيها تدخل أمريكا لصالح إسرائيل ذروتها ، كانت هي اللحظة التي بلغ فيها هيام أصحاب سياسة « التحييد » بأمريكا أعلى قممها . ومنذ أن بذلت أمريكا أكبر جهد تملكه من أجل تزويد إسرائيل بأضخم كمية من الأسلحة لكى تقتل بها أبناءنا وتحتل أراضينا ، أصبحت هي الصديق ، ثم الحليف والولي !

فى كلتا الحالتين اذن . وسواء وصلنا الى التحييد عن طريق القوة الذاتية أم عن طريق الاستسلام ، تنتهى سياسة التحييد الى نتائج مناقضة لذاتها ، وتلفى نفسها بنفسها .

ولنتأمل بعد ذلك نتائج هذه السياسة الجديدة التي نفسدت بتخطيط بارع ، بالنسبة الى حرب أكتوبر .
ان هناك جدلا ضخما ، يثيره هيكل فى هذه الأيام ، حول الادارة السياسية لحرب أكتوبر ، ويرى فيه أن هذه الحرب ، التي حققنا فيها انجازا عسكريا جيدا بجميع المقاييس ، لم تكن نتائجها السياسية على مستوى الأداء العسكرى فيها على الاطلاق .
والنقطة الأساسية التي يثيرها هيكل فى هذه الأيام هي انه كان من الممكن تطوير الحرب حتى المرات على الأقل منذ الأيام الأولى ، مما يعطينا مركزا تفاوضيا أقوى بكثير . وفضلا عن ذلك فقد كشفنا أوراقنا للعدو فى مراسلات سرية دارت منذ اليوم الثانى للحرب ، اعترفنا فيها بأن هدفنا من الحرب محدود ، وبأننا لن نعمق الصراع أو نوسع جبهاته ، مما أتاح لأمريكا ، ولهنرى كيسنجر بوجه خاص ، فرصة معرفة خططنا النهائية مقدما

واستغلالها لصالح إسرائيل (٢١) .

وفي تصوّر أن الجدل حول هذا الموضوع كله ، بالصورة التي طرحها هيكل ، جدل عقيم . ذلك لأن هيكل يفترض أن كيسنجر لم يعرف النوايا المصرية من الحرب ، إلا عن طريق تلك المراسلات السرية ، ومن هنا فإنه يوجه اللوم إلى من كتبها وإلى من أعطى الأمر بكتابتها ، على حين أن كاتبها يدافع عن نفسه بحرارة ضد اتهامات هيكل بشأن هذه المراسلات . وحقيقة الأمر أن أمريكا تعرف نوايا الحرب المصرية منذ أمد بعيد . فهناك عوامل كثيرة كانت كلها كافية لمعرفة هذه النوايا : منها مثلاً الصراع بين هيكل والجناح الآخر من الناصريين حول طبيعة الحرب المنتظرة ، ومنها الاتجاه الكامل للدبلوماسية المصرية في عهد السادات خلال السنوات السابقة للحرب ، ومنها طرد الخبراء السوفيت والسعي إلى مزيد من التقارب والتفاهم مع أمريكا . كل هذه التطورات لم تكن تؤدي بأي حال إلى قيام حرب تحرير شاملة .

ولكن ، لندع الاستنتاجات جانباً ، ولنستمع إلى الأقوال الصريحة والمباشرة . فطوال شهور فبراير ومارس وأبريل ١٩٧٢ ، كانت كتابات هيكل تركز على « الحل السياسي الذي تسانده قوة عسكرية - لا الحل الدبلوماسي فقط ، ولا الحل العسكري المطلق » . « لا بد أن نفهم أن الولايات المتحدة لن تتحرك - إذا تحركت - إلا تحت ضغط ، وإلا فماذا يدفعها إلى الحركة ؟ القوة العسكرية ، نعم ، ولكن .. وفقاً لموازين العصر وفي إطار سياسي شامل » (٢٢) .

هكذا كان تصور هيكل للحرب هو أن هدفها التحريك ، وتحريك من ؟ الولايات المتحدة بالذات . ولماذا نبحث عن تحريك الولايات المتحدة ، وليس أية دولة أخرى ، كهدف للحرب ؟ ألا يفترض هذا أن أمريكا تملك كل ، أو معظم ، أوراق اللعبة ؟ هكذا

(٢١) انظر أحاديث هيكل في « الأمل » خلال شهرى مايو ويونيو ١٩٨٣ .

(٢٢) « سيادة العقل » - ١٩٧٢/٣/١٧ .

يدل كلام هيكمل بوضوح على أنه يشارك في الموقف الرئيسي لسياسة السادات في إدارة الصراع العربي الاسرائيلي .

ولنستمع الى كلمات أصرح : « الحرب المسموح بها الآن هي استعمال القوة المسلحة لهدف تتوفر له الشرعية الدولية » . ويتوفر للطرف الذى سيحمل السلاح لتحقيق هذا الهدف تأييد احدى القوتين الأعظم على الأقل ، ثم يتوفر لهذا الطرف بقوته الذاتية وبما يتلقاه من أصدقائه طاقة لا شك فيها لتحقيق هذا الهدف فى اطار محدد أو محدود . ثم يكون القصد من تحقيقه هو التأثير فى الوضع السياسى . معنى ذلك انها حرب محدودة . . محدودة الهدف » (٢٣) . هل هناك ما هو أوضح من هذه العبارات فى الدلالة على أن هدف الحرب المحدودة ، لا الحرب الشاملة ، كان مرسوما مقدما ، وان هيكمل كان مشاركا فى التخطيط لهذا الهدف والترويج له ؟

ومع ذلك ، فهناك ما هو أصرح حتى من هذا الكلام : « ليكن أن مصر تشعر أن طاقتها تحتل أن تحرر بالقوة المسلحة ولو مائة كيلو متر مربع فقط من أراضيها . . واذا كانت مصر دقيقة فى حساباتها ، فانها سوف تنجح فى تحقيق ما تريد ، وسوف تحرر بالفعل هذه المائة كيلو متر مربع من أراضيها ، وسوف تحتفظ بها فى وجه أية هجمات مضادة من العدو . . وهذا يغير صورة الأزمة كلها ، ويفتح الباب لتطورات مباشرة أخرى فى مجرى الصراع » (٢٤) .

تأمل معى ، أيها القارىء ، هذا الكلام الواضح ، وتأمل من جهة أخرى تلك الضجة الكبرى التى يثيرها هيكمل فى هذه الأيام ، بعد عشر سنوات من الحرب ، وبعد أن نسي الناس ما قاله فى الفترة المهددة للحرب - أعنى الضجة التى أقام بها الدنيا وأقعدها حول ما يسميه « بالعبارة الكارثة » الواردة فى رسالة سرية من حافظ اسماعيل ، مستشار الأمن القومى المصرى ، الى كيسنجر ، نظيره

(٢٣) « نوع الحرب الممكنة ، والضرورية » - ١٩٧٢/٣/٢٤ .

(٢٤) المقال السابق نفسه .

الأمريكي . وتحدث فيها اسماعيل عن نوايا مصر في جعل الحرب محدودة وعدم توسيع جبهاتها أو تعميق مسارها . ألم يقل هيكل أكثر من هذا قبل وقوع الحرب ، في مقالات علنية لا في مذكرات سرية ؟ هل كانت أمريكا مضطرة الى انتظار الرسالة السرية حتى تعرف نوايا مصر في الحرب ؟ والأهم من ذلك ، ألم يكن هيكل نفسه من أهم المروجين لسياسة احتلال مساحة محدودة من الأرض ، والثبات فيها ، وتحريك الأزمة كلها من خلالها - وهو ما حدث بالضبط . في حرب ١٩٧٣ ؟

ان في وسع هيكل ، بالطبع ، أن يرد بقوله ان ما كتبه قبل الحرب شيء ، وما حدث في الحرب الفعلية شيء آخر . فقد أتت الحرب نفسها بمفاجأة لمخططي سياسة تحرير مساحة محدودة من الأرض : هي في الواقع المفاجأة التي كان يدخرها شعب مصر « لعبقرية » السياسيين ، عندما تمكن أبناء الشعب في جيشهم من العبور بسهولة غير متوقعة ، وأحرزوا نجاحا سريعا قليل التكاليف ، مما أوقع المخططين العباقر في حيرة ، وأوجد موقفا جديدا لم يتوقعه واضعو سياسة الحرب المحدودة ، وعلى رأسهم هيكل . ولكن ، هل كان من المعقول ان يحدث تغيير مفاجئ للمخطط السياسية في أعقاب هذا النصر الأول السريع ، بعد أن ظلت الدبلوماسية الرسمية ، من سرية وعلنية ، وأجهزة الاعلام الساداتية والهيكلية ، تبني كل شيء على أساس حرب محدودة تحرر قطعة أرض صغيرة وتحفظ بها ؟ لو كان المخططون والكتاب الصحفيون العباقر ، قد وضعوا منذ البداية بدائل ، وعملوا حسابا للموقف الذي تحقق ، ضمن هذه البدائل ، لربما أمكن عندئذ أن تتغير السياسة بسرعة تمشيا مع الوضع الجديد . ولكن كل شيء كان مرسوما على أساس حرب التحريك المحدودة ، ولم تنتظر أمريكا رسالة حافظ اسماعيل السرية لكي تعرف ذلك ، بل كان يكفيها ان تنابر - كما أرجح انها فعلت - على قراءة هيكل .

يبقى أمامنا أن نتساءل : ما تأثير السياسة التي اتخذت مجرى

جديدا كل الجدة فى عامى ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، على التطورات التالية فى مصر وفى العالم العربى ؟ ان هاتين السنتين تحملان ، فى رأى ، بذرة معظم التطورات التالية . واذا كان هيكل قد قام بالدور الذى حددنا معالنه فى تهيئة الأذهان لتحول حاسم فى السياسة المصرية ، ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٢ ، واذا كان قد غير اتجاهه تغييرا جذريا ، مع تغير الحاكم وسياسته ، خلال هاتين المرحلتين ، فان معنى ذلك ان مسئولية هيكل عن التطورات السلبية المتأخرة للعهد الساداتى مسئولية لا شك فيها . صحيح ان السنين تضيف عوامل ومتغيرات جديدة ، ولكن هذه كلها اضافات للأسس الأولى التى أرسيت فى هاتين السنتين الأوليين ، وعلى رأسها التحالف مع أمريكا ، والحرب المحدودة بهدف الصلح الذى تتوسط فيه أمريكا ، والامتناع عن التسليح عن طريق السوفيت والالتجاء الى أمريكا ، نفس البلد الذى يقدم لحصمنا سلاحه ويعلن على الملأ انه يضمن تفوقه .

ومنذ اللحظة التى قررنا فيها اللجوء الى أمريكا ، لكى تتوسط بيننا وبين اسرائيل ، ومنذ اللحظة التى رفضنا فيها السلاح السوفيتى لكى نختار بدلا منه سلاحا أمريكيا ، حسمت أمور عديدة تحقق الكثير منها فيما بعد . فهذا القرار ينطوى ، بصورة جنينية ، على فكرة الصلح مع اسرائيل ، وجعل العداء للسوفيت هدفا رئيسيا لسياستنا ، والتعاون مع أمريكا ، وتطبيق أفكارها فى حياتنا الداخلية ، وخاصة الاقتصاد .

ولكى ندرك مرارة هذه الحقيقة ، وخاصة فى ضوء الضجة التى يثيرها هيكل هذه الأيام ضد العهد الساداتى الذى نسى انه كان فيلسوفه الأول خلال السنوات الأولى والحاسمة من تاريخه . دعونا نفكر بامعان فى مغزى عبارة هامة قالها موسى دايان ، تعليقا على رحلة السادات بالطائرة الى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ : « لقد أديرت محركات طائرة السادات حين طرد الحبراء السوفيت وبدأ سياسة تنويع السلاح وقبل باتفاقات فك الاشتباك بكل ما يعنيه

ذلك من استبعاد للخيار العسكري» (٢٥) .
 هذا كلام خطير بقدر ما هو واضح : فأولئك الذين رسموا
 سياسة تنوع التسليح عن طريق طرد الخبراء السوفيت والترويج
 لفكرة التقارب التدريجي مع أمريكا ، هم الذين أداروا محركات
 طائفة السادات المتجهة الى القدس ، لأنهم ربطوا مصير بلادهم
 وجيوشهم بمصير راعية إسرائيل وحاميتها . ومن الواضح ان
 هيكل ، بالنسبة الى هؤلاء ، كان كبيرهم ومفكرهم وموجههم .
 فالبذرة الأولى قد غرستها يد هيكل ، وما يتبقى بعد ذلك ليس الا
 من قبيل التفاصيل . ومع ذلك فان هيكل نفسه هو الذي يأتي في
 أيامنا هذه ، وينعني على السادات ركوبه تلك الطائفة التي كان هو
 ذاته قد زودها بالوقود وأدار لها المحركات .
 أتريد ، أيها القارئ ، معسرفة الأصول الأولى للكارثة
 الحالية ، و « الجذور » ؟ اقرأ صفحات هذا الفصل ثانية ، وفكر فيها
 بامعان .

(٢٥) النص مأخوذ عن محاضرة للاستاذ توفيق أبو بكر في رابطة الاجتماعيين
 بالكويت ، في ١٩٨٣/٤/٢٥ ، وعنوان المحاضرة هو « الولايات المتحدة والصراع
 العربي الصهيوني » .

الفصل التاسع

عمنا سام

لست أدري لم اختار هيكمل أن يوجه كتابه عن السادات الى الجمهور الامريكى على وجه التحديد . ولكن الامر المؤكد هو أنه ، طوال هذا الكتاب ، كان يضع في ذهنه هذا الجمهور وهو يشرح هذه النقطة أو تلك ، ويقوم بهذا التحليل أو ذاك ، مما أعطى الكتاب ، فى مواضع غير قليلة ، طابعا غير مألوف لدى القارئ العربى . فمنذ اللحظة الأولى ، يركز هيكمل على صفة « النجومية » ، وعلى « صناعة النجم » ، وكأنها هى التى تلخص شخصية السادات ، مع انها - من وجهة نظر كاتب هذه السطور - لا تزيد عن كونها أسلوبا ملائما لجمهور أجنبى اعتاد التهريج السينمائى حتى أصبحت صفة « النجومية » أساسية عنده ، حتى فى اختياره لرئيس جمهوريته . وهكذا يتحدث « خريف الغضب » فى مقدمته عن نجوم العصر ، فيضع ضمنهم « جاكلين كيندى » ، ويشعر القارئ العربى بأنه تلقى لكمة وهو يقرأ عن هذه النماذج المنحلة ، وان كان القارئ الأمريكى لا يرى أية غرابة فى ذلك . والواقع أن السادات لم يكن فى وقت من الاوقات نجما بالنسبة الى شعبه ، أعنى المصريين والعرب على حد سواء ، بل كان نجما فى نظر الأمريكان وبعض الأوروبيين ، وذلك لأسباب لا علاقة لها بشخصه ، وانما بسياسته .

اننا نعلم جميعا ان أجهزة الاعلام الغربية ، والأمريكية بوجه خاص ، قد تعمدت أن تضخم صورة السادات . ولم يكن ذلك راجعا فقط الى اعجاب هذه الأجهزة بذلك الصديق المخلص الجديد ، أو الى صفات معينة في شخصيته أهله لكي يكون في نظرهم « نجما » ، وانما كان يرجع قبل كل شيء الى رغبتهم في الحصول منه على المزيد من التنازلات ، عن طريق خدعة الاعجاب الاعلامي الزائد . فقد كان من الواضح ان لدى السادات ، شأنه شأن معظم الحكام الفرديين ، وربما بصورة أشد تطرفا من الباقين ، ميلا شديدا الى الاحساس بأهميته وخطورته ، وكان ذلك يتجلى بوضوح حين تنشر الصحف المصرية ، على الدوام ، تعليقات الصحف والاذاعات الأخرى على خطاباته لكي تبين مدى اعجاب الآخرين به . وقد أثقن الأمريكيون من دراسة نقاط الضعف في شخصيات الزعماء ، وخاصة في العالم الثالث ، للاستفادة من نقاط الضعف هذه بقدر ما يستطيعون . وهكذا كان كل مقال يكتب عن السادات في صحيفة أمريكية ، وكل صورة له ، أو لأسرته ، على غلاف مجلة أمريكية ، تعنى مزيدا من التنازلات ، ومزيدا من الترحيب بالنفوذ الأمريكي ، ومزيدا من الامتيازات الاقتصادية أو العسكرية التي تمنح للغرب بوجه عام .

لم تكن المسألة اذن مسألة « نجومية » ، وانما كانت « صناعة النجم » هذه ، في حقيقتها ، استغفالا واستغلالا لغرور حكام العالم الثالث . ومع ذلك فان هيكمل أراد في كتابه أن يصحح فكرة الجمهور الأمريكي عن « معبوده » الجديد ، وأن يرسم له الصورة التي يعتقد انها حقيقية ، في مقابل الصورة المتطرفة في الاعجاب ، التي صورتها أجهزة الاعلام الأمريكية للسادات . ولكن ، ما الذي يدعونا الى تصحيح فكرة المجتمع أو الرأي العام الأمريكي عن السادات ، وما الذي سنجنبه من ذلك ؟ ان أمريكا هي العدو الأول لأمانى الشعب العربى وتطلعاته ، فلماذا نهجد أنفسنا لكي تقدم اليها الصورة الصحيحة - ان كانت بالفعل صحيحة ؟ لماذا لم يوجه

الكتاب ، مثلاً ، الى المعسكر الاشتراكي ، أو الى العالم الثالث ، أو الى الشعب العربي ، ولماذا يحرص المؤلف منذ الصفحات الأولى على أن يؤكد أن صورة السادات عند الغرب لم يكن لها ما يبررها ؟ ألا يزال عندنا نوع من « الأمل » في أمريكا حتى نتعشم منها خيراً عندما تصحح فكرتها عن زعمائنا ؟

إن دور النشر الأمريكية أقدر من غيرها على ترويض الكتب . هذا صحيح ، ولكن هناك فارقاً بين كتاب ينشر في دار أمريكية ، وكتاب يؤلف من وجهة نظر تستهدف مخاطبة الجمهور الأمريكي . واعتقد أن اهتمام هيكل بمحور « الممثل » « والنجم » ، وبالعوامل والمقد النفسية في النشأة الأولى ، واستخدام تشبيه « ترومان » لتبرير تعاونه مع السادات في السنوات الأولى من حكمه ، كل ذلك يدل على أن هيكل كان يخاطب في الأساس جمهوراً أمريكياً ، ولم يكن ينشر في دار أمريكية فحسب .

على أن الهدف الذي كان يرمى اليه هيكل من هذا كله هدف عقيم . فمن العبث أن يحاول أى مؤلف تصحيح صورة حاكم أعجب به الجمهور الأمريكي لأسباب لا علاقة لها ، في الواقع ، بشخصه أو مسلكه . إن ما يهم أمريكا ، شعباً وحكومة وصحافة وإعلاماً ، هو المصالح ، وليس نخفة دم هذا الحاكم أو طيبة قلب ذاك . ومن الممكن بالفعل أن يعجب الأمريكيون بحاكم من أجل هذه الصفات الشخصية ، ولكن « بعد » أن يكون هذا الحاكم قد خدم مصالحهم . أما إذا تعارضت سياسته مع المصالح الأمريكية ، فعندئذ لن يشفع له في نظرهم أن يكون في خلقه الشخصى قديساً . وهكذا فإن الأمريكيين لا يكونون صورتهم عن أى زعيم على أساس فضائله الداخلية أو الشخصية ، أو حتى طريقته السلبيّة في الحكم ، بل على أساس ما يمكن أن يجنوه منه من فوائد . فالسادات كان معبود الأمريكيين ، لا لأن شخصيته كانت محببة لديهم ، بل لأنه حقق لهم أكثر مما كانوا يحلمون في الشرق الأوسط كله : فأخرج السوفيت من أهم بلد عربي ، وفتح الأبواب للاستلحة والخبراء

الأمريكيين ، وأعطى الاستراتيجية الأمريكية قواعد أو ركائز أو تسهيلات (سمها ما شئت ، فالحقيقة واحدة) ، وجعل محاربة الشيوعية هدفا له الأولوية المطلقة على مكافحة الصهيونية ، وتطرف في تحديد المقصود « بالشيوعية » ، حتى أدمج فيها كل حركة وطنية تكافح الاستعمار والاستغلال . أما مسألة ما اذا كان حاكما جيدا أو سيئا ، وما اذا كان قادرا على حل مشاكل شعبه أم مشاركاً في تخريبه ، فهذه مسائل لا تهتم الأمريكيين كثيراً . وكم من طاغية في أمريكا اللاتينية ، مثلاً ، كانت فضائحه وجرائمه على السنة الناس في العالم أجمع ، ومع ذلك كان الأمريكيون معجبين به أشد الإعجاب ، ويساعدونه بكل طاقاتهم في تثبيت حكمه الإرهابي : كما حدث في حالة سوموزا ، وباتستا ، وما يحدث حالياً في حالة بينوشيت . وأستطيع أن أقول أن هذا ليس الموقف الرسمي للحكومة الأمريكية وحدها ، بل أن الشعب الأمريكي ذاته قد تشكلت عقوله بحيث يوجه إعجابه بأى حاكم أجنبي في اتجاه مصالحه ، لا في اتجاه مصالح البلد الذي يحكمه هذا الحاكم . وهكذا فإن محاولة هيكل أن يفتح عيون الأمريكيين على حقيقة السادات محاولة فاشلة ، بل أنها تفترض منذ البداية صفات في الجمهور الأمريكي لا يمكن أن توجد فيه . وهنا لا يملك المرء إلا أن يكرر السؤال الذي بدأنا به هذا المقال : لماذا اختار هيكل الجمهور الأمريكي لكى يوجه اليه حديثه في هذا الكتاب ؟

ان المرء يستطيع أن يقول ، باطمئنان ، ان علاقة هيكل بأمريكا علاقة حميمة ، خاصة جداً . فمنذ البداية كانت أمريكا هي الموضوع الرئيسى الذى دار حوله الخلاف بينه وبين الأجنحة الناصرية الأخرى ، فضلاً عن اليسار بطبيعة الحال . وكان إيمان هيكل بقوة أمريكا وتأثيرها ودورها وعدم امكان تجاهلها ، إيماناً راسخاً لا يتزعزع ، أما الكتابات التى هاجم فيها أمريكا فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر فلا تمثل أى اتجاه دائم لديه ، وإنما كان هذا الهجوم ضرورة تكتيكية فى ظل الظروف السائدة بعد هزيمة

١٩٦٧ . وما أن استتب الأمر للسادات ، حتى عاد الاتجاه الأمريكي للظهور ، وكان التحول الذى طرأ على اتجاه السياسة المصرية نحو أمريكا فى عام ١٩٧٢ ، والذى دعا اليه هيكىل بحماسة بالغة ، هو نقطة البدء الحقيقية فى التغلغل الأمريكى فى المنطقة العربية كلها ، وليس اتفاقية فض الاشتباك ، كما يؤكد هيكىل باستمرار .

ومما يلفت النظر أن هيكىل ، فى كتابه عن السادات وفى أحاديثه الصحفية عن فترة ١٩٧٣ و ١٩٧٤ ، التى تزايدت بصورة ملموسة فى الآونة الأخيرة ، لم يذكر شيئاً عن حصار الجيش الثالث فى الضفة الشرقية للقنال من حيث هو أحد الأسباب الرئيسية للتوقيع على اتفاقية فصل القوات ، أو فض الاشتباك . التى بدأ فيها الخلاف يظهر بين السادات وهيكىل . ذلك لأن الحصار الكامل الذى فرضته إسرائيل على هذا الجيش ، كان هو الأساس الأهم للصفقة التى تمت بين السادات وأمريكا : اذ تعهدت هذه الأخيرة بأن تحفظ للسادات ماء وجهه ، ولا تسمح لإسرائيل بتجويع الجيش الثالث أو بدفعه الى الاستسلام ، وفى مقابل ذلك اعترف السادات لأمريكا بالجميل ، لكى يظل قادراً على القول ان جيوشه كانت فى الضفة الشرقية حتى نهاية الحرب ، ووقع اتفاقية فض الاشتباك الأولى ، وهذه جرت الثانية ، كما جرت معها مزيداً من النفوذ لأمريكا فى المنطقة . فما سبب تجاهل هيكىل لهذا العامل الحاسم ، على الرغم من أحاديثه المسهبّة حول هذه الفترة ؟

لقد تم هذا الحصار وتحقق بمساعدة مباشرة من أمريكا ، وكانت الدبابات تنزل من سفن الشحن أو الطائرات الأمريكية الى ساحة المعركة مباشرة ، كما لعبت الأقمار الصناعية ووسائل التجسس الأمريكية دوراً أساسياً فى تحديد مكان النفرة التى أدت آخر الأمر الى هذا الحصار ، وهو موضوع شرحه هيكىل بالتفصيل فى مقالاته التى كتبها عن هذه الفترة . فما الذى جعله يمتنع عن الخوض فى هذا الموضوع الحيوى فى كتابه الأخير ؟ هل يرجع ذلك الى أنه لم يشأ أن يقول للجمهور الأمريكى ، الذى وجه اليه الكتاب ، ان

الوضع السيء الذى وجد فيه الجيش الثالث نفسه كان من صنع أمريكا ؟ هل يرجع الى انه لم يشأ أن يتحدث عن الصفقة التى يمكن أن تكون قد عقدت بين السادات وأمريكا ، بحيث يقاير السادات انقاذ أمريكا له من الكارثة المحلية والفضيحة الدولية المترتبة على خنق الجيش الثالث واحكام القبض على عنقه بالتدريج ، مقابل ابداء الاستعداد التام لقبول المطالب الأمريكية ؟ اننا هنا ندخل منطقة البحار العميقة ، التى تمس صميم الصفقات والاتفاقات السرية ، والتى يصعب الكلام عنها الا عن طريق الاستنتاج . ولكن تسلسل الأحداث جاء كما يلى : أخذت السياسة المصرية تتجه منذ عام ١٩٧١ ، نحو الميل الى الطرف الأمريكى والابتعاد عن الطرف السوفيتى ، وتقدم هيكل بالنظرية التى تقول بإمكان ايقاف فاعلية أمريكا فى مساعدتها لاسرائيل فى ظل ظروف وتوازنات دولية معينة ، وطبقت هذه السياسة عمليا ، وكانت أهم خطواتها طرد الخبراء السوفيت بطريقة مدوية ، ثم قامت حرب أكتوبر ، وكانت لدى أمريكا معرفة كاملة بالطبيعة المحدودة لهذه الحرب ، فى ضوء اتجاهات السياسة المصرية كلها ، وفى ضوء كتابات هيكل الصريحة والواضحة حول هذا الموضوع . ولكن السياسة الجديدة التى كان النبى المبشر بها هو هيكل ، أنت بنتائج عكسية تماما : فبدلا من « تحييد » أمريكا ، قامت أمريكا بأعظم وأسرع عملية انقاذ فى التاريخ ، زودت فيها اسرائيل عبر جسر جوى جبار بما يكفيها للصمود فى وجه الأداء المصرى والسورى الممتاز فى الأيام الأولى للحرب ، ثم الانتقال الى الهجوم الذى أسفر ، فى سوريا ، عن تهديد دمشق ذاتها ، وفى مصر عن ثغرة أخذت تتسع بالتدريج حتى حاصرت الجيش الثالث كله حصارا كاملا . كان هذا الانقلاب فى الميزان العسكرى من صنع أمريكا فى المحل الأول ، وعندما أمسكت بكل الحيوط فى أيديها بدأت تحركها كما تشاء ، وبدلا من أن تتمكن السياسة المصرية من « تحييدها » ، أصبح الجيش الثالث وسمعة مصر وهيبة النظام ورجاله رهينة فى أيديها ، وبدأ مسلسل توقيع

الاتفاقات الاستسلامية •

هذا الجانب من الموضوع سكت عنه هيكل تماما وسقط الضجيج الهائل الذى اثاره فى كتابه الأخير ، وفى أحاديثه الصحفية الكثيرة هذه الأيام ، حول حرب أكتوبر • فهل كان سكوت شعورا بالمرج من أن تنكشف النتائج المساوية لدعواته الى سياسة « التحييد » ، أم كان امتناعا عن الغوص فى البحار العميقة ، التى

تهدد من يقترب منها بالغرق ؟

أيا ما كان الجواب ، فإن هذه هى المرحلة التى أقام فيها السادات اتصلا وثيقا مباشرا مع الأمريكيين ، وفيها يروى هيكل قول السادات لكيسنجر ، عندما اجتمع به فى بداية محادثات فض الاشتباك الأول ، « لماذا لم تأت من قبل ؟ » وفى رأى الشخصى ان هذا الاتصال المباشر الذى أقامه السادات مع الأمريكيين منذ ذلك الحين ، والذي ازداد توتقا مع الأيام خلال السنوات التالية ، كان من الأسباب الرئيسية للجفوة ثم الخلاف بين هيكل والسادات : اذ كان السادات قبل هذه الفترة يعتمد كثيرا على هيكل فى كل ما يتعلق بالاتصال بالأمريكيين ، على أساس الصلات الوثيقة التى كانت تربط هيكل بهم ، وعلى أساس ما كان شائعا عنه من أنه يفهم الأمريكيين أكثر من غيره • ولكن منذ أن أقام السادات جسوره المباشرة بنفسه ، ومنذ أن فتحت قنوات اتصال واسعة بينه وبينهم • لم يعد فى حاجة الى صلات هيكل أو خبرته الأمريكية ، وبدأ يتجه الى الاستغناء عنه • وفى الوقت ذاته فإن هيكل ، عندما شعر بأنه يستبعد بالتدريج ، أخذ يوجه انتقاداته الى سياسة السادات ، لا سيما وأن هذا الأخير قد سكر بنشوة الغرام الأمريكى الى حد أنه أوقع نفسه فى أخطاء لا حصر لها ، بينما كان هيكل يعرف جيدا ان أمريكا لا ترتبط طويلا بالعشيق الولهان بحبها أكثر مما يجب ، والذي يفصح عن هذا الحب علنا ودون موارد • انها سرعان ما تنبذ كل من يفصح غرامه بها ، لأنها تفضل دائما العلاقات الحفية ، المستورة ، الشديدة الفعالية ، ولا بأس - حتى - من مهاجمة

أمريكا في العلن من آن لآخر ، حتى تظل الروابط الخفية قائمة . .
هذا هو قانون الغرام الأمريكي الذي لم يفهمه السادات فدفع حياته
ثمننا لعدم الفهم .

وهنا نصل الى منطقة أخرى من مناطق البحار العميقة ، مر
عليها هيكل في كتابه سريعا ، وعالجها بطريقة غير متعمقة ، مع
أنها كانت تستحق وقفة متأنية وتحليلا متعمقا - وأعنى بها موضوع
مقتل السادات ، واحتمال وجود دور لأمريكا فيه . فهيكل قد
حرص على تبرئة الأمريكيين من أية شبهة في هذا الحادث ، بعد
مناقشة موجزة تنم عن رغبته في أن ينفذ يديه بسرعة من هذه
المسألة الشائكة ، في الوقت الذي حرص فيه على أن يتقصى خبايا
مسائل أقل أهمية من هذه بكثير .

فحين طرح هيكل النظرية القائلة بوجود مؤامرة أمريكية في
قتل السادات ، استبعداها بسرعة لتلاثة أسباب تبدو في نظرنا غير
مقنعة على الإطلاق :

السبب الأول أن نظام السادات كان أحد الدعائم الرئيسية
في سياسة ريجان المعادية للشيوعية في المنطقة ، واستطاع التدخل
في بعض بؤر المتاعب الأفريقية (متاعب من وجهة نظر أمريكا
بالطبع ، أما من وجهة نظر العالم الثالث فهذه « المتاعب » هي
حركات تحرير وطني) . والسبب الثاني أن الولايات المتحدة لا
تستطيع تحمل سقوط شاه آخر بعد أقل من سنتين من سقوط
الشاه الأصلي في إيران . . أما الثالث فهو أن من الصعب تصور
وجود تلاق في الفكر أو العمل بين وكالة المخابرات المركزية
الأمريكية وبين التنظيمات الإسلامية .

هذه الأسباب لا تكفي على الإطلاق لتبرئة أمريكا من تهمة
التآمر على قتل السادات ، إذ أن محاربة السادات للشيوعية تتوقف
على مقدار فاعليته كحاكم ، بين شعبه والشعوب العربية الأخرى .
أما فقدان السادات لفاعليته بين الشعوب العربية فكان قصة

معروفة ، بدأت منذ فض الاشتباك الأول ، وانتهت الى قطيعة تامة بعد اتفاقية كامب ديفيد ، وهو أمر ينبغي أن تضحه أمريكا في اعتبارها عندما تحسب مدى فائدته لها كصديق . وأما فاعليته بين شعبه فقد شهد بضياها كثير من الأمريكيين ، ومنهم سفراء في المنطقة نشروا تقارير مشهورة تضمنت نقدا مريرا لسياسة السادات . وكان الشاهد الأكبر على فقدان السادات فاعليته كصديق ينفع أمريكا في تحقيق سياستها في المنطقة ، هو حركة اعتقالات سبتمبر ، التي اغضبت الجميع ، ولم تترك للسادات صديقا في مصر ، بدءا بأقصى اليمين ، حتى أقصى اليسار ، مروا بأحزاب المعارضة والسياسيين المخضرمين . فما قيمة هذا الصديق الذي يفقد فاعليته في بلده الى هذا الحد ؟ ان من اللافت للنظر ان حجم الانتقادات التي وجهت الى أسلوب حكم السادات ، بعد اعتقالات سبتمبر ، التي سبقت اغتياله بشهر واحد ، كان هائلا الى درجة ادهشت السادات نفسه . فقد ثارت الصحافة الغربية ، في أمريكا بوجه خاص ، ثورة عارمة على ممارسات السادات غير الديمقراطية ، وهو أمر ليس من عادتها أن تقوم به بالنسبة الى أصدقائها في أمريكا اللاتينية ، مثلا ، الذين يصفون الألوف من معارضيهم جسديا دون أن تتحرك الصحافة الا فيما ندر . وهكذا كان واضحا ان نفس أولئك الذين « صنعوا النجم » قرروا أن وقت أفوله قد حان .

أما عدم تحمل أمريكا لسقوط شاه آخر بعد أقل من سنتين ، فهو حجة لا تقنع أحدا ، إذ أن أمريكا تستطيع أن تتحمل سقوط ألف شاه ما دامت واثقة من أنها ستجد البديل . ولا ننسى أن الشاه كان يؤكد دائما ان أمريكا هي التي ألقت به بعيدا « كالقار الميت » ، بل ان احتمال اشتراك مخبراتها في التعجيل بموته قد أثر بقوة في كثير من الأوساط .

تبقى أخيرا مسألة استبعاد وجود تلاق في الفكر أو العمل بين المخابرات المركزية الأمريكية والتنظيمات الإسلامية . وهذه في

الواقع حجة شديدة السداجة ، لا يملك المرء ازاءها الا أن يقول لهيكل : أنت تعرف خيرا من ذلك ! فالمخابرات الأمريكية لن تتلاقى مباشرة بالطبع ، فى الفكر أو العمل ، مع أى تنظيم كذلك الذى قتل السادات ، وانما ستعمل من خلال « وسائط » قريبة من فكر هذا التنظيم وعمله ، وما أكثر هذه الوسائط فى البلاد الإسلامية . ولا بد أن يكون أسلوب العمل هو الاتصال عن بعد ، بحيث لا يشعر المنفذون الأصليون بوجود أى تحرير خارجى على الإطلاق ، وتظل دوافعهم الدينية الأصلية هى التى تدفعهم طوال الوقت . وينبغى أن نلاحظ أن تغلغل أجهزة المخابرات العالمية فى الجماعات الشديدة التطرف ، يمينا ويسارا ، هو أسهل الأمور ، وهو حادث بالفعل على نطاق عالمي . وعلى أية حال فاننا هنا ندخل منطقة من أخطر مناطق البحار العميقة ، التى ينبغى فيها على شهر زاد أن تسكت عن الكلام المباح ، والا فلن يدركها الصباح !

ان ابداء رأى قاطع فى مثل هذه الأمور التى هى بطبيعتها شديدة الخفاء ، والتى تدبر باحكام وتكتم بالغ ، هو أمر مستحيل . ويكفى أن رئيس جمهورية أمريكى مشهور ، هو جون كينيدي ، قد اغتيل فى ظروف مريبة الى أقصى حد ، وشعر الكثيرون ان أجهزة أمريكية خفية هى التى قتلتها ، ولكن الموضوع ظل حتى يومنا هذا غامضا ، يثير علامات استنفهام كبرى ، بعد أن قدمت هذه الأجهزة شخصا على انه القاتل ، ثم قتلت هذا القاتل ، ثم قتلت قاتل القاتل . . . انها أمور لا تتكشف حتى لأدق لجان التحقيق ، ولكن « الضحايا » ، الذين يعرفون أساليب هذه الأجهزة خيرا منا جميعا لأنهم تعاملوا معها طويلا ، غالبا ما يفهمون طبيعة ما حدث . فقد أدرك شاه ايران ، كما قلنا ، ان سلبية قيادة جيشه ازاء المظاهرات العارمة فى أيامه الأخيرة لا بد أن تكون راجعة الى أوامر من أسيادهم الأمريكان . وكانت زوجة السادات وأسرته ، كما قال هيكل نفسه ، من أقوى المؤيدين لنظرية المؤامرة الأمريكية ، ولم يعدلوا عنها لأسباب منطقية ، بل لأسباب مصلحة : « فقد وجد

أفراد الأسرة انها (أى النظرية) لا تستطيع أن تصل بهم الى شيء ، بل بالعكس قد تضر مصالحهم مع قوة يعتبرون انها قادرة على حمايتهم » .

انها كما قلت موضوعات شديدة التعقيد ، يكاد يستحيل كشف وقائع ملموسة تلقى الضوء على خباياها ، وكل ما يملكه المرء ازاءها هو ان يستنتج ، ويرجح الفرض الذى يفسر أكبر عدد ممكن من الظواهر . وأحسب ان افتراض وجود مؤامرة أمريكية ، بالصورة التى عرضناه بها ، أقدر من غيره على تفسير أشياء كثيرة ، فضلا عن أنه لا يتعارض مع الفرضين الآخرين ، أعنى وجود مؤامرة داخل الجيش ، ووجود تنظيم اسلامى واسع النطاق هو الذى تولى تنفيذ العملية . فمن الممكن أن يكون لهذه الجهات الثلاث معا دور فى تلك العملية التى خططت ونفذت باحكام يفوق الوصف ، وهو احتمال لم يعرض له هيكىل ، فى حرصه الشديد على استبعاد الفرض الأمريكى بسرعة .

ولكن ، اذا تركنا هذا الميدان الشديد الغموض ، المحفوف بالمخاطر ، وانتقلنا الى التحليل السياسى المرتكز على أرض أكثر صلابة ، لوجدنا أن أمريكا ، ان لم تكن قد خططت لقتل السادات ، فانها حكمت عليه بالاعدام سياسيا ، بعد أن استهلكته واستنفدت أغراضها منه .

فبعد أن وقع السادات معاهدة كامب ديفيد ، بما فيها من بنود مفصلة بشأن انسحاب اسرائيل من سيناء والتطبيع معها ، وبما فيها من اشارات قليلة شديدة الغموض عن القضية الفلسطينية ، وبعد أن ثارت ثائرة العالم العربى على هذه المعاهدة وقطعت معظم بلاده علاقاتها بنظام السادات ، كانت أمريكا تستطيع أن تسلك طريقا من طريقين :

الطريق الأول هو أن تدعم السادات وتضمن مستقبله السياسى عن طريق اثبات صحة موقفه أمام العالم العربى .
ويقضى هذا الطريق ان تتطور الاتفاقية بحيث تصبح أكثر من

مجرد صلح منفرد بين اسرائيل ومصر ، أى أن تسير - كما طالب السادات مرارا - فى طريق التسوية الشاملة . مثل هذا المسلك سيكون فيه انقاذ للسادات ، لأنه رهن مستقبله السياسى ، وعلاقاته مع العالم العربى بأسره ، على هذا التوقع . ولو سارت أمريكا ، ومعها اسرائيل ، فى هذا الطريق ، وحقت للسادات على الأقل جزءا مما يريد ، خارج نطاق التسوية المحلية بين مصر واسرائيل ، لاستطاعت ان تعيد اليه مكانته فى العالم العربى ، ولماكنها ان تربط كثيرا من البلاد العربية بعجلة الاتفاقية الجديدة . ولكن هذا الطريق كان ينطوى ، من وجهة نظر أمريكا ، على عيوب واضحة : اذ أنه يؤدى الى دفع ثمن باهظ ، هو الانسحاب الاسرائيلى من الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧ ، والى توحيد البلاد العربية فى خط سياسى واحد ، يقوى جبهتها فى المطالبة بالحقوق الفلسطينية ، وقد يؤدى فى المدى الطويل الى انشاء كيان فلسطينى على مستوى معقول ، فضلا عما تؤدى اليه التسوية الشاملة ، بشروط معقولة ، من توفير ضخم للأموال والطاقت العربية فى اتجاه التنمية والتعمير .

أما الطريق الثانى ، الذى يرجع ان اسرائيل قد املت عليه ، واستجابت لها أمريكا بعد أن اقتنعت بأنه أكثر تحقيقا لمصالحهما المشتركة ، فهو عدم مجاملة السادات ، وعدم بذل أى جهد من أجل انقاذه من ورطته ، ما دام قد أدى مهمته الأساسية ، وعدم التنازل لبقية العرب عن شىء . هذا الطريق يتضمن من وجهة النظر الأمريكية - الاسرائيلية ، مزايا عديدة : بقاء العالم العربى ممزقا وفى حالة ضعف شديد ، والاستفراد بكل دولة بعد الأخرى وعزلها عن الباقين ، واخراج مصر نهائيا من الصراع العربى الاسرائيلى وضمان حرية الحركة الكاملة لاسرائيل . وهكذا فان مزايا هذا الطريق أعظم بكثير ، من وجهة نظرجبهة الأعداء ، من الطريق الآخر . وكان الثمن الوحيد الذى ينبغى دفعه فى حالة اتساع هذا الطريق الثانى ، هو التضحية بالسادات ...

والآن ، تخيل نفسك أيها القارىء أمريكيا مخلصا ، حريصا على مصلحة بلدك وعلى ارتباطات هذا البلد بالدولة الصهيونية التي تحقق له كل أهدافه فى المنطقة ، فأى الطريقين تختار ؟ تهديدك لمصالح بلدك وحلفائك من أجل فرد واحد مخلص لك ، أم التضحية بالفرد وبمستقبله ، مهما كان إخلاصه ، من أجل ضمان مصالحك وزيادة مكاسبك ؟

لقد كان جواز المرور الوحيد لدى السادات امام العالم العربى ، والمبرر الوحيد لتوقيعه المعاهدة ، هو أن تستمر قسوة الدفع الى أن تتحقق التسوية الشاملة . ولكن الطرف الآخر - وله كل الحق فيما فعل ، من وجهة نظره الخاصة - وجدها فرصة ذهبية لتوريثه ، وتركه عاريا فى منتصف الطريق ، فضمن المكسب وتجنب الخسارة . وهكذا ، فمنذ اللحظة التي ساندت فيها أمريكا حليفها اسرائيل فى تعنتها ، ومنذ اللحظة التي قررت فيها أمريكا ألا تضغط على اسرائيل الى الحبل الذي يلزمها بالسير قدما نحو التسوية الشاملة - منذ هذه اللحظة كانت قد حكمت على السادات بالاعدام . ولقد أدرك هذه الحقيقة بوضوح تام السفير الأمريكى الأسبق فى مصر ، لوشيبوس باتل ، وعبر عنها بكلمات بالغة الدلالة فى المقال الذى كتبه فى رثاء السادات : « كلما كانت الولايات المتحدة تضغط عليه للدخول فى كامب ديفيد ، كان تعرضه للخطر يزداد ، فلن نقبل نحن ولا الاسرائيليون نتائج الأخطار التي كنا ندفعه اليها . ولقد كانت الطريقة الوحيدة التي كان يمكن بواسطتها ان يصبح لاتفاقيات كامب ديفيد معنى فى نظر السادات هى افتراض امكان التقدم نحو صلح شامل ، وكان من الضرورى ان تظهر علامات واضحة على أن طريقه هو الصحيح ، حتى يحذو العرب الآخرون فى الوقت المناسب حذو السادات ، وهو أمر كان يقتضى فهما من جانب اسرائيل وضغطا من الولايات المتحدة على الفريقين لتحريك مباحثات الحكم الذاتى وخفض عدد المستوطنات فى الضفة الغربية . ولكن بدلا من ذلك ، زادت المستوطنات ، وأضيفت اهانة ضرب

المفاعل في العراق وقصف بيروت . ولم تفعل الولايات المتحدة شيئا . . وهكذا أصبح السادات شهيدا لنفسه وللعالم الغربي ، ولكن ليس للشرق الأوسط ، سواء منه العربي أو الاسرائيلي .
« لقد كانت المجموعة الأمريكية التي شيعت جنازته ضخمة الى حد لم يعرف له مثيل من قبل . وهكذا فاننا بعد أن خذلناه حيا ، قد احتضناه ميتا » (١) .

في هذه الشهادة المباشرة ، يظهر بوضوح ان السادات كان ، بالنسبة الى أمريكا ، قد استنفد أغراضه ، وأدى ما هو مطلوب منه ثم ترك لمصيره المحتوم . ولم يعد مجديا بعد ذلك ان يحاول استرضاءهم بنصريحات حامية ضد الشيوعية ، اذ أنهم كانوا قد اداروا له ظهورهم ، وعندما زارهم قبل مصرعه بشهرين ، كان واضحا أنه لم يعد في نظرهم الزعيم المفضل الذي كان . ومنذ كامب ديفيد ، بل منذ زيارة القدس ، أدرك أصدقاء أمريكا ، الأكثر منه ذكاء والأبعد منه نظرا ، ان السفينة غارقة لا محالة ، وهكذا قفز منها اسماعيل فيمى ، ثم منصور حسن ، ثم هيكل ، الذي كان على أية حال واعيا بأبعاد الأزمة قبل الجميع . ولو لم يكن القتل الفعلي قد تم بتدبير من أمريكا ، لأمكن القول - على أقل تقدير - أن أمريكا هي التي قيدت يدي السادات بالسلاسل ، وأمسكت برأسه وشدتها الى الوراء ، ولم يبق الا السكين التي تذبج . ومن هنا فاني أرى ان مرور هيكل السريع على مسألة دور أمريكا في مقتل السادات واستبعاده أى فرض يحملها مسؤولية ما حدث لصديقتها العتيد ، هو أمر لا يمكن تفسيره الا بأحد أمرين : اما أن هيكل يشعر بالخطورة الشديدة لحوض هذا الموضوع ، الذي لا بد أن « أرشيفه » يمتلئ بالوثائق والمعلومات عنه ، وإما أنه يريد أن يبعد عن ذهن القارئ أى احتمال لتورط

(١) انظر مقال Anwar Sadat Remembered المشار اليه في

صفحة ٧١ من ص ١٤١ الى ص ١٤٩

أمريكا ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، في هذه العملية .

ان المنحى العام لكتابات هيكل ، في مراحلها المختلفة ، يقنع كل من يتابعها بدقة بأنه كان يرتبط بأمريكا في علاقة حميمة جدا ، أما الانتقادات التي يوجهها اليها فانها الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، لان أصدقاء أمريكا ، اذا كانوا أذكاء ، لا بد أن يهاجموها من آن لآخر ، بل انها هي ذاتها التي تطالبهم بذلك .

وأنا أعرف أن هذا الموضوع يثير حساسية خاصة لدى هيكل ، ولذلك فأننى سأتابع فى اثبيياتى لما أقول ، أكثر الطرق أمانا ، وأعنى به الاستعانة بما يقول هيكل نفسه .

فى أحد المواضع فى كتاب « مدافع آية الله » يتحدث هيكل عن وساطة طلبتها منه أمريكا من أجل حل مشكلة الرهائن الذين كانوا محتجزين فى السفارة الأمريكية بطهران ، مرة قبل محاولة أمريكا الفاشلة لانقاذ الرهائن بالقوة الأولى فى صحراء تاباز ، ومرة أخرى، بعد قيام هذه المحاولة وفشلها الذريع . فى المرة الأولى سأل هارولد سوندرز ، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية ، عما اذا كان على استعداد لمساعدة الرئيس كارتر ، فأجاب هيكل بأنه على استعداد لمساعدة الايرانيين . ومن الواضح ان السؤال أهم ألف مرة من الجواب . فما الذى يدفع موظفا رسميا أمريكيا الى أن يسأل صحفيا مرموقا فى دولة يوجد بينها وبين أمريكا تضارب شديد فى المصالح ، عما اذا كان على استعداد لمساعدة رئيس دولته ؟ وعلى أى أساس بنى توقعه بإمكان قيام هيكل بهذه الخدمة للرئيس الأمريكى ؟

ولكن الأهم من ذلك هو الوساطة التى طلب الى هيكل القيام بها ، عن طريق رسالة بعثها اليه الأمريكيون . ونص الرسالة ، كما كتبها هيكل بنفسه (٢) ، هو :

(٢) « مدافع آية الله » لهيكل - الطبعة الثالثة ، دار الشروق (١٩٨٣)

« واتضح انها عبارة عن اقتراح ، القصد منه أن أقوم أنسا باستخدامه في محاولة جديدة لمفاتيح السلطات في طهران ، وكانوا يأملون أن أوافق على هذه الخطوة . وكانت الوثيقة غريبة بالفعل ولعل أفضل طريقة لظهار مدى ابتعاد التفكير الأميركي عن الواقع هو أن أورد الوثيقة كما هي :

« الفكرة هي أن يذهب هيكل الى ايران ، ويقسّم الى بنى صدر طريقة تمكن الايرانيين من استخدام كارثة عملية الانقاذ ، لاطلاق سراح الرهائن ، وان يضعوا نهاية لهذه القضية . كما يقوم هيكل باقناعه ان مثل هذا العمل ، فرصة نادرة ليركب موجة قومية اسلامية لتدعيم مركزه - ويمكن تقديم نفس الفكرة الى الحميني باعتباره مشاركا في نفس الرغبة للتخلص من المشكلة .
« ويمكن لهيكل أن يستفيد من النقاط التالية :

أ - ان نجاح الثورة الايرانية أمر قد اتضح وتمت البرهنة عليه من جراء الهزيمة المخزية لبعثة الانقاذ الامريكية ، فلقد بين الله سبحانه وتعالى للعالم ، انه مهما كان العدو جبارا ، فان الحق في جانب المظلومين وفي هذه الحالة ستتاح للجميع فرصة ليشهدوا التسامى الخلقى للجمهورية الاسلامية وليذا :
ب - خدمت قضية الرهائن القرض الذي كانت ترغب فيه ايران . فقد كانت بمثابة الاداة التي أظهرت للعالم ، وبشكل مشير ، مساوىء حكم الشاه ودعم الحكومة الأمريكية له . ان عجز الحكومة الأمريكية عن القيام بعملية انقاذ لهو الشهادة الثانية والأخيرة على عدالة أخذ الرهائن . (وعلى سبيل المثال : أدى الفعل الإيراني الى رد فعل أمريكي نتج عن فشله تأكيد للرسالة التي كانت ايران تود أن تنقلها أساسا) لذا لم يعد هناك أى حاجة للرهائن .

ج - سيتم الافراج عن الرهائن ، لأن ايران لم تكن تنوى أبدا إلحاق الأذى بهم ، وهذه اللفتة ستظهر بشكل مشير وواضح مدى سماحة الاسلام ورحمته وليس هناك شعور

بالكراهية تجاه الشعب الأمريكى ، وانما ينصب الكره على الحكومة وحدها (فيطلق سراح الرهائن الآن ، وليظهر غباء الأمريكيين وعدم مهارتهم أكثر من ذى قبل ولتنقلهم الطائرات من تاباز نفسها امام مندوبى الصحف ولتدون كل ملاحظاتهم الساخرة المستخفة بالولايات المتحدة الخ ٠٠) ولتظهر إيران والجمهورية الاسلامية بمظهر المنتصر ذى الأخلاق السامية .

د - وهكذا يظهر مختطفو الرهائن بمظهر المنتصرين والأبطال القوميين ، فهم لم يلحقوا الأذى بأحد ، كما انهم نفذوا تعليم الامام . ويستقوم الحكومة بمكافأتهم بسخاء ، ويعترف الامام بفضلهم بشكل خاص ، قد تكون هذه هى آخر فرصة لقوة المختطفين لترك مجمع السفارة دون حدوث ضرر لأحد فى إيران .

هـ - يجب أن تعلن إيران نفسها قرار الافراج وكأنه حدث درامى يدل على الرحمة والعطف بالرهائن ، وهى خطوة اتخذها الحمينى بنفسه . واجراءات الافراج عن الرهائن ستمنع إيران فرصة هائلة للدعاية ، تغطي بها الخمسة أشهر البائسة بمسحة من الأخلاق الحميدة والرحمة ، وهكذا تجدد إيران صورة الاسلام ، وهذا شئ يسعد كافة المسلمين فى العالم . وتهاجم الحكومة الأمريكية مرة أخرى لعدائنها للقضايا العادلة ، وهذا لا يقلل من معركة إيران مع الحكومة الأمريكية ولا يمثل أى نوع من المهادنة معها . انتهت الرسالة .

» ولقد تلقيت رسائل أخرى من واشنطن بعد ذلك ، لكن حسب معلوماتى التى كانت ترد من طهران ، كانت كسل خطوط الاتصال مع الأمريكيين قد تداخلت بشكل يبعث على اليأس . فلم يكن لدى الإيرانيين أى فكرة عن المفترض فيه أن يتحدث معهم ، ولا حتى عن تلك الاشارات التى كانوا يتلقونها من الأمريكيين وتعتبر

عن الموقف الأميركي الحقيقى •

أمل أن تكون ، أيها القارىء ، قد قرأت هذه الصفحات المنقولة حرفيا بامعان • فلم يكن ما تطلبه أمريكا هنا من هيكل مجرد وساطة ، بل انهم اختاروه شخصيا للقيام بعملية خداع واستغلال لعقول الايرانيين ، مستغلا مشاعرهم الاسلامية ، بحيث يتعامل معهم كما لو كانوا مجموعة من الهنود الحمر البدائيين الذين يمكن الحصول على كل شيء منهم مقابل عقد من الحرز الملون • وبالطبع فقد تصور هيكل انه يدافع عن نفسه حين قال انه لم يقم بتنفيذ المهمة المطلوبة منه ، ولكن هذا ، فى الواقع ، ليس دفاعا على الاطلاق ، اذ أن المشكلة لا تكمن فى التنفيذ أو عدم التنفيذ ، وانما فى الطلب ذاته •

المشكلة الكبرى هى أن الأمريكين « كانوا يأملون ان يوافق على هذه الخطوة » • فعلى أى أساس جاءهم هذا الأمل ؟ كيف تصوروا أنه سيقبل الاشتراك فى عملية خداع الحكام الايرانيين ومعاملتهم كأنهم أطفال ؟ من أين جاء كل هذا الأمل ، وكل هذا « العشم » ، فى هيكل ؟ وكيف توقعوا منه أن يتجاوز مهمة الوساطة ويقوم بتمثيلية خداعة على الايرانيين باسم الاسلام ، أى أن يخاطبهم وفى نيته أن يغشهم ويستغل سذاجتهم لصالح أمريكا ؟ وما هى نوع الروابط التى تربطه بهم حتى يطلبوا منه شيئا كهذا ؟

ان هيكل يستطيع أن يقول ، بالطبع ، انه ما دام قد نشر الرسالة فلا بد أنه كان حسن النية • ولكن الواقع انه لا يدرك ما يمكن أن تكشفه رسالة كهذه عن الطريقة التى ينظر بها الأمريكيون اليه • فمن المستحيل أن تطلب أمريكا من انسان عادى - مهما كانت مكانته - أن يعرض نفسه للأخطار من أجل أداء كل هذه الخدمات لصالحها • وحتى لو كانت أمريكا قد أساءت التقدير ، وتصورت خطأ أن هيكل يمكن أن يقوم بهذا كله لحسابها ، فإن لهذا الخطأ ذاته دلالة البالغة ، لأنهم لا يمكن أن يكشفوا أوراقهم على هذا النحو

لاى شخص غير ملتصق بهم . ومن جهة أخرى فقد كان المفروض ، فى حالة خطأ أمريكا ، ان يرد عليهم هيكل بشدة ، لا معتذرا فقط ، بل مستنكرا هذا الطلب بكل قوة . كان المفروض ان يرد عليهم ردا شديدا العنف ، يقول فيه ، مثلا : هل تتصورون انكم تخاطبون شخصا يشغل لحسابكم حتى تطلبوا منى شيئا كهذا ؟ وكيف تتخيلون اننى سأقوم بعملية خداع واستخفاف بعقول أناس وضعوا ثقتهم فى ؟ ولكن هيكل لم يفعل ذلك ، والدليل على هذا هو أن كل ما انتقده على الأمريكيين ، فى تعليقه على رسالتهم ، هو « ابتعاد تفكيرهم عن الواقع » . والدليل الأهم على أنه لم يستنكر ، ولم يوقف الأمريكيين عند حدهم ، هو انهم عادوا فبعثوا اليه برسائل أخرى .

ان هيكل لم يدرك النتائج الخطيرة للكلمات التى قالها ، وكل ما طاف بذهنه هو انه كان فى هذه القصة رجلا مهما يسعى اليه وزير الخارجية الأمريكى ويختاره شخصا للتوسط بين دولتين ، احدهما أكبر وأقوى دولة فى العالم . وفى نشوة الاحساس بالسعادة الناتج عن الشعور بأهميته ، لم ينتبه الى المعانى الواضحة التى يستطيع أى عقل على قدر ضئيل من الذكاء أن يستخلصها من روايته .

وفى ضوء هذه الاعترافات الخطيرة ، غير المقصودة ، التى أدلى بها هيكل ، ألا يشعر المرء بالاشفاق حقا على الايرانيين الذين فتحوا له أبوابهم ، وأطلعوه على أخطر وثائق السفارة الأمريكية ، بعد أن خدعتهم شهرته المرتبطة بجمال عبد الناصر ، ثم خرج هو من الزيارة بكتاب تضمن كثيرا من السخرية من الايرانيين ، وربما خرج بما هو أكثر من ذلك ؟

اننى ، ادراكا منى لحساسية هذا الموضوع عند هيكل ، حرصت على ألا أستخدام نوع الألفاظ الذى يفضبه . ولكن الأهم من ذلك أننى لم أت بشئ من عندى ، وكل ما فعلته هو أننى تركت هيكل يدين هيكل .

الفصل العاشر

من الذى هدم الهيكل ؟

ما نوع ردود الفعل التى يمكن توقعها ازاء بحث كهذا الذى كنت أقوم به طوال الفصول السابقة ؟ سأترك جانبا ردود الفعل الايجابية الممكنة ، وأركز حديثى على ردود الفعل السلبية .

ان هناك فئة غير قليلة من القراء تفكر على النحو الآتى : ما دام هيكل قد أساء الى السادات ، وما دام هذا الناقد (كاتب هذه السطور) قد استهدف كشف أخطاء هيكل ، اذن فنقلده مفيد فى الانتقام من هيكل لصالح سياسة السادات .

وهناك فئة أخرى ، ربما كانت أكثر عددا ، تنظر الى المسألة بالطريقة العكسية : بما أن هيكل قد فضح عهد السادات ، وهو عهد غير وطنى ، اذن فلا بد من الوقوف الى جانبه ، أما من يهاجم هيكل فى الظروف الراهنة فانه يضعف الجبهة المعادية للسادات ، بعد أن كانت قد انتعشت بظهور كتاب هيكل . وواضح ان الأساس الذى يقوم عليه هذا النوع من التفكير هو مبدأ : عدو عدوى صديقى (عدوهم السادات وهيكل عدوه) . وتبعا لهذا المبدأ يكون كاتب هذه السطور ، فى انتقاده لهيكل ، هو فى الواقع « عدو عدو عدوهم » ، أى عدو صديقهم ، أى عدوهم !

ومع اعتذارى للقارئ عن هذه الالغاز اللفظية الأخيرة ، فانى

أجد في هاتين الطريقتين في الفهم لب الخطأ الذي أحاول منذ البداية أن أقنع القارئ ألا يقع فيه . فموقفى ، كما قلت مرارا ، منصب على نقد جو فكرى عام ، وأسلوب كامل فى النظر الى عملية الحكم ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وطريقة اتخاذ القرارات الحاسمة . وهذا الأسلوب أوسع نطاقا من أى فرد تحدثت عنه فى هذا الموضوع أو ذاك ، بحيث لا يمثل هيكل وكتابه الأخير الا حالة صارخة ، حادة ، قريبة العهد ، من حالات ظاهرة أقدم وأوسع انتشارا وأقوى رسوخا بكثير .

وإذا كان الساداتيون ، الذين ينتمى اليهم أصحاب الرأى الأول ، قد قرأوا ما كتبت بامعان ، فسوف يدركون ان نقصدى للعهده الساداتى ربما كان أشد حدة من نقد هيكل ، لأننى أرجعت كثيرا من الظواهر الى جذورها الحقيقية ، ومن ثم فان أية محاولة يبذلونها للاستفادة مما كتبت هى ، كما قلت فى مقالى الأول ، مرفوضة من أساسها .

أما أصحاب الرأى الثانى ، الذى يضم عناصر من الفئات الناصرية واليسارية والقومية ، فانهم يرتكبون خطأ جسيما حين يستعينون ، من أجل دعم موقفهم ، بشخصيات مثل هيكل . ان الكثيرين منهم ، بالطبع ، يصفون موقفى بأنه نوع من المثالية التى تفتقر الى الحس العملى : انه بحث عن الصواب المطلق أو الخطأ المطلق ، لا يعرف كيف ينتهز الفرص السانحة ويستفيد من أى عنصر - بصرف النظر عن طبيعة هذا العنصر فى ذاته - من أجل خدمة قضيته . هذا رد أتوقعه من الكثيرين ، بل أتوقع ما هو أشد منه : فمن هؤلاء من سيهاجمنى بعنف ، مؤكدا ان هيكل الآن يخوض معركة ضد المؤسسة الساداتية كلها ، ولا بد من تأييده ومساندته ، لا اضعافه ومحاربته .

ولكن هذا المنطق ، فى رأى ، مرفوض من أساسه . فالمسألة ليست على الاطلاق مثالية مفرطة فى الابتعاد عن الواقع ، وانما هى - على عكس ذلك - موقف واقعى وعملى بكل معانى الكلمة . ذلك

لأننا لن نستطيع أن نفهم العوامل المؤدية الى السقوط الذى وصلنا اليه ، فى كافة جوانب حياتنا ، الا اذا حللنا بدقة أساليب التفكير والممارسة عند أولئك الذين تحكموا فى مصائرنا طوال عشرات السنين ، وانتقدنا هذه الأساليب دون أية مهادنة . وحالة هيكل تقدم لنا نموذجاً بارزاً لهذه الأساليب ، وان كان يظل رغم كل شيء مجرد نموذج ، لا يهمننا الا بقدر ما يدل على المناخ السياسى والفكرى العام الذى كان ينتمى اليه .

والواقع اننى لا أجد ، من منظورى الخاص ، أية فائدة ترجى من التحالف مع شخصيات اعتادت التقلب مع عهود الحكم ، بحيث لا ندرى ، اذا كانت تتخذ اليوم خطاً وطنياً (سنقدم له تفسيراً فيما بعد) ، أى خط ستتخذه غداً . فإذا اضيفت الى ذلك حقيقة أهم من هذه ، وهى أن هيكل أسهم بدور أساسى فى ارساء دعائم الاتجاهات التى ينتقدها اليوم على السادات ، عندئذ يبدو التحالف معه أمراً محفوفاً بالخطر ، ويبدو انقلابه الأخير على السادات موقفاً لا علاقة له بالمبادئ السياسية ، وانما هو فى حقيقته ، ومهما أنكر هيكل ، انتقام شخصى يلبس رداء الوطنية .

وفى غمرة الغضب الذى اجتاحت هيكل ، خلال فترة اعتقاله القصيرة الأمد ، نسى أشياء كثيرة ، ولم يتذكر الا انه يريد أن ينتقم ، وكان لديه بالطبع مخزون المعلومات الهائل الذى يضمن له انتقاماً مدوياً . وهكذا تحدث هيكل عن أخطاء السادات ، مدعماً بالوثائق التى تفضح أشياء كثيرة وخطيرة ، كما لو كان مشاهداً محايداً ، ونسى الدور الحاسم الذى لعبه فى هذه الأخطاء . بل انه حين تدفق فى سرد المعلومات من مخزونه الكبير ، نسى ان الكثير مما قاله له دلالات عكسية ، ويأتى بنتائج سلبية على الجميع ، سواء عليه هو ، أو على الحكام الذين عاش فى عهدهم . ومرت عليه أشياء خطيرة انزلت اليها دون أن يدرك معانيها ، حتى ليشعر المرء - كما سنرى فيما بعد - ان غضبه قد سد عليه منافذ التفكير .

ولو كان هيكل متسقا مع نفسه ، لتمالك غضبه وبدأ كتابه بانتقاد نفسه . كان من واجبه تجاه ذاته ، وتجاه وطنه ، ان يقول : « لقد أيقظتني فترة السجن من غفوة طويلة .. كنت على خطأ فى كثير من مواقف طوال الأعوام الثلاثين الماضية ، وكان أكبر أخطائي مساندتى القوية للسادات ودعوى حكمه ، وهأنذا أكفر عن أخطائي .. » لو كان هيكل قد بدأ بكلمات كهذه ، وصاغ كتابه فى هذا الاطار ، لما تعرض لكلمة نقد واحدة منى أو من غيرى ، بل لصفقنا له جميعا ، اذ انه كان سيقدم لنا عندئذ عملا رائعا ، يكشف الحقائق المخفية ، ويلقى - بموضوعية - أضواء باهرة على أخطر مرحلة فى التاريخ العربى المعاصر . ولكن هذه أمنية يستحيل أن تتحقق: اذ كيف تنزل الآلهة من عليائها وتتعترف بأخطائها ؟ ان هيكل يرى نفسه أرفع حتى من الرد على منتقديه ، فكيف نتوقع منه نقدا ذاتيا شاملا ؟ على رسله اذن ، وليتحمل نتيجة موقفه .

لقد كانت لدى هيكل حاسة سياسية مرهفة جعلته يتخذ حتى النهاية موقف المحامى عن عبد الناصر ، وبدرجة أقسل ، عن عصر عبد الناصر ، رغم انه شارك بدور رئيسى فى بذل الجهد الضخم الذى أدى الى القضاء على أهم مقومات العهد الناصرى فى ١٥ مايو ، وكان من دعائم التحول الحاسم الذى كان لا بد ان يفضى فى النهاية الى انهيار سياسة الحياد الايجابى ، والى الانحياز لأمريكا ، بكل ما يعنيه ذلك من انضمام الى صف أعداء الشعوب ومكافحى التحرر الوطنى ، ومن تصالح وتطبيع مع اسرائيل ، ومن سيطرة للطبقات الطفيلية والبنوك الأجنبية . واذا كان هيكل قد انتقد هذه النتائج كلها بشدة فى الآونة الأخيرة ، فان دعمه الحاسم للسادات ، الذى كان هيكل يعرف جيدا ميوله واتجاهاته واتصالاته ، كان لا بد ان يؤدي الى نتائج كهذه فى المدى البعيد . ولقد أتاحت هذه الحاسة السياسية المرهفة ذاتها لهيكل ان يقفز من مركب السادات فى الوقت المناسب ، ويدخل من أجل

ذلك السجن فترة قصيرة . وكان دخوله السجن في الواقع أكبر « ضربة حظ » نالها في السنوات الأخيرة . فعندما أصدر « خريف الغضب » ، استطاع أن يكتسب لنفسه تأييد كل الساخطين على عصر الانفتاح ولصوص التموين والارتساء في أحضان بيجن وتوصيل ماء النيل إلى القدس وبيع آثار مصر ومواقعها التاريخية . تحول هذا كله إلى رصيد لصالح هيكل ، واعترف هو نفسه بذلك حين قال في الفصل الأول من كتابه ، معلقا على مهاجمة السادات له : « حين يجعل رئيس الدولة من أحد مواطنيه هدفا دائما لهجماته ، فهو بذلك يرفع من قدره ولا ينتقص منه . وبالتالي فلعلني لا أتجاوز اذا قلت انني على نحو ما مدين للرئيس السادات بما أضافه - دون أن يقصد - إلى قيمتي في الساحة الوطنية والساحة الدولية على السواء » . وبصرف النظر عما يمكن ملاحظته بسهولة من أن تضخيم الذات واضح في هذا الكلام ، فإن الحقيقة الواقعة هي أن هيكل قد أصبح في نظر الكثيرين « بطلا » وطنيا ، وأخذ الوطنيون الشرفاء يتبنون قضيته ، أما عن كراهية للسادات تحتم التصفيق بلا تفكير لكل من يهاجمه ، وأما عن عجز عن الربط بين حلقات التاريخ وفي المقابل ، فإن خصومه من الساداتيين أخذوا يهاجمونه بعنف ، مما جلب له مزيدا من الشعبية . وحين اتخذت الحكومة بعض الاجراءات القمعية ، بإصدار تشريع استثنائي آخر يمنع أي « مسنول » من الافشاء بأسرار كان مطلعا عليها ، تحول هيكل ، الذي طالما برر الحكم الفردي وصاغ له النظريات البارعة ، إلى شهيد لحرية الرأي والديمقراطية المهددة .

ان قصة هيكل مع الحرية والديمقراطية قصة طويلة ، ليس هنا مجال الكتابة عنها ، وكل ما نود أن نفعله هو أن نركز انتباه القارئ على جوانب معينة من الانتقادات التي وجهها ، مؤخرا ، إلى السادات ، والتي وقف فيها يدافع بقوة عن هذه المبادئ السامية ، ثم نسأل أنفسنا : هل كان هيكل ، في انتقاداته

الأخيرة ، يدين السادات وحده ، أم يدين نفسه أيضا ، ويدين كل المناخ السياسى الذى كان يعمل فيه ؟

يتحدث هيكل فى الفصل الخامس من كتابه عن الهدايا التى كان السادات يتلقاها فيقول : « وخلال سنوات عمله فى المؤتمر الإسلامى كان السادات يتلقى الكثير من الهدايا فى عالم يؤمن بالهدايا كوسيلة من وسائل توثيق الصلات » . فإذا تساءلنا : أى عالم كان يقصد ؟ أتانا الجواب سريعا : « لكن الحق يقال انه كان كريما فى تقديم الهدايا قدر كرم الآخرين فى تقديمها له . لقد قدم أنور السادات فى تلك الفترة أكثر من سيارة « كاديلاك » كهدايا لعبد الحكيم عامر » : اذن فالمقصود عالم أقطاب ثورة ٢٣ يوليو ، أولئك الثوار الذين استهدفوا تطهير مصر من « فساد » الأحزاب القديمة ، والذين يهدى أحدهم الى الآخر بعضا مما أنعم الله به عليه ، هو مجرد « سيارات » كاديلاك تقدم الى الرجل الثانى بين الثوريين ، الذى وصفه هيكل فى الموضع نفسه بأنه « كان فى نفس الوقت أقرب أعضاء مجلس قيادة الثورة الى قلب جمال عبد الناصر » .

حسنا ، ان مثل هذه الأشياء تحدث فى أحسن « الثورات » ، ولكن ألم تكن هذه الواقعة تستحق من هيكل تعليقا على النظام الذى سمح بهذا ، وجعل من الهدايا وسيلة لتوثيق الصلات ؟ هل هذه هى الدروس التى يقدمها فلاسفة الثورة للأجيال الجديدة ؟

ينتقد هيكل العهد الساداتى على كثير من ممارساته اللاديمقراطية ، وهو قطعا على حق فى هذا النقد ، ولكنه لا يقدم اشارة واحدة الى الاطار التاريخى الذى ظهرت فى ظله هذه الممارسات ، ويصورها كما لو كانت قد ابتدعت فى عهد السادات .

فهو يعيب على السادات اصداره تشريعا يمنع الذين « أفسدوا الحياة السياسية قبل الثورة أو بعدها » من النشاط

السياسى ، وينسى أن تشريعات كهذه كانت تصدر من آن لآخر طوال عهد الثورة ، كان أولها ما صدر فى عام ١٩٥٣ تمهيدا لحل الأحزاب . وهكذا فان تشريع السادات حلقة فى سلسلة طويلة من الاجراءات القمعية ضد التجربة الحزبية فى مصر ، ولسم يكن السادات فى اجرائه هذا الا ابنا مخلصا للتراث الذى تربى سياسيا فى ظله . وما دام هيكل قد وجد فى التشريع الساداتى اجراء تعسفيا - وهو بالفعل كذلك - فلماذا سكنت عن الاجراءات الماثلة السابقة ، بل لماذا أيدها ودعما بتنظيراته ؟ هنا نرى هيكل واحدا ضمن سلسلة طويلة من رجال الثورة الذين كانوا يؤيدون الدكتاتورية وهم فى الحكم ، ثم يتحولون بقدرة قادر الى ديمقراطيين متحمسين عندما يتم استبعادهم ، من أمثال البغدادى وكمال الدين حسين وهويدى ، الخ ، . . .

وهو يسخر من تلاعب السادات فى الدستور . وتعديل المادة الخاصة برئاسة الجمهورية ، بحيث تتجدد مدة الرئاسة الى ما لا نهاية . . هل كانت هذه هى المرة الأولى التى حدث فيها ذلك ؟

بل انه يلاحظ فى الفصول الأخيرة ، عن حق ، ان السادات كان لديه دستور لا بأس به ، ولكنه لم يكن يتقيد به . . . ألم تكن هذه فرصة لنقد مبدأ التلاعب بالدستور بوجه عام ، ولإعطاء القارئ درسا فى أهمية الدساتير ووجوب احترامها فى كل العهود ؟

وحين يسخر هيكل من استفتاءات السادات ، التى كانت نتائجها مضمونة مقدما ، والتى كان يلجأ اليها لاضفاء صبغة قانونية زائفة على اجراءات أو تشريعات مخالفة بطبيعتها لروح القانون والدستور - فهل كان هيكل يهاجم مبدأ الاستفتاء ذاته ، أم كان يهاجمه فقط عندما طبقه خصمه السياسى ؟ ألم يكن الاستفتاء مبدأ معمولاً به قبل عهد السادات بوقت غير قصير ؟ ومما يلفت النظر أن هيكل قد انتقد بشدة ، فى كتابه

الآخر ، طبيعة التنظيمات السياسية غير الشعبية التي تخلقهما السلطة لدعم مركزها ، ويشير الى عيوبها بقوله : « لم تكن لدى حزب مصر - على سبيل المثال - ولا الحزب الوطنى بعده ، من القوة السياسية الا ما أسبغه النظام بالسلطة عليهم ليكونوا واجهات يتستر وراءها الفعل الحقيقى . وكان أكثر من نصف أعضاء مجلس الشعب من هؤلاء الذين غيروا آراءهم مع تغيير الحكومة لسياساتها . كانوا اشتراكيين فى الوقت الذى كان من الحكمة فيه ان يكونوا أعضاء فى الاتحاد الاشتراكى العربى . وأصبحوا رأسماليين عندما انفتحت الأبواب لرأس المال الأجنبى . وكانوا أصدقاء للاتحاد السوفيتى حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا بسرعة - حين تغيرت الظروف - الى الصداقة مع الولايات المتحدة . وكانوا دعاة الحرب مع اسرائيل ، وبعد المبادرة أصبحوا كلهم من دعاة السلام » .

هذا تشخيص سليم بغير شك ، ولكن هل ينطبق على أعضاء حزب مصر والحزب الوطنى وحدهم ؟ ألم ينتقل عدد كبير من الأعضاء قبل ذلك ، من هيئة التحرير الى الاتحاد القومى الى الاتحاد الاشتراكى ، رغم اختلاف المبادئ والأسس فى كل حالة ؟ ألم يكونوا بدورهم رأسماليين فى البداية ، ثم أعلنوا ولاءهم للاشتراكية حين أصبحت سياسة رسمية ؟ ان جوهر نقد هيكل كان ينبغى أن ينصب على أسلوب الحكم الذى يفرض تنظيما شعبيا مقلوبا ، يسير نشاطه من القمة الى القاعدة ، على حين ان التنظيمات ، لكى تكون شعبية بحق ، لا بد لها أن تبدأ بالقاعدة وتنقل رغباتها ومطالبها الى القمة . ومثل هذا الأسلوب لم يبدأ فجأة فى عهد السادات ، بل كانت له مقدمات طويلة .

أما الحديث عن أولئك الذين كانوا أصدقاء للاتحاد السوفيتى حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا عندما تغيرت الظروف الى الصداقة مع الأمريكان ، فانه حديث جرى حقا ، وخاصة حين يصدر عن هيكل . وأرجح انه كتب هذا الجزء وهو جالس أمام المرأة !

وحين وصف هيكل عملية اعتقاله وصفا دراميا مفصلا ،

كان يتحدث في الواقع عن نقطة تحول هامة في حياته ، جعلته يتخذ قراره بأن يتكلم . والأمر المذهل حقا هو أن هذا الاعتقال المخفف جدا ، سواء من حيث مدته أو أسلوب معاملته في السجن ، لم يكن مما يمكن مقارنته على الإطلاق بما حدث لألوف الأشخاص من قبل ، ممن ذاقوا أشد الأهوال لمدد أطول كثيرا ، وفي ظروف أصعب ألف مرة . ومع ذلك فإن هيكل يصور حادثة اعتقاله كما لو كانت شيئا فريدا في نوعه ، ولم يحاول أن يعالجها ، ولو في سطر واحد ، بوصفها ظاهرة عامة ونتيجة ضرورية لأسلوب معين في الحكم .

وواقع الأمر أن هيكل لم ينطق بحرف حين كانت الاعتقالات تحدث جزافا ، وتنتهي في حالات معينة بعاهات مستديمة للمعتقلين ، وربما بموتهم . لم يحركه إتهان كرامة الإنسان أو بلوه فئة معروفة من السجناء إلى ممارسات غير آدمية ، وكل ما دافع به عن نفسه أنه هو الذي صاغ عبارة « زوار الفجر » . . . ومتى ؟ عندما كان الانبيار قد حدث ، وكان النظام في حاجة إلى ما يهدئ مشاعر الشعب المجروح بالهزيمة عن طريق ممارسة محدودة للنقد الذاتي ، أما في ذروة أيام القمع فلم يحرك ساكنا . ويقدم إلينا هيكل أوصافا وتفصيل طريفة عن احساس السادات بالعظمة وبأن الآخرين إلى جواره « أقزام » ، وعن عزلته المتزايدة وتناقص عدد مستشاريه يوما بعد يوم ، ولكنه يصف هذه الظاهرة كما لو كانت عيبا شخصيا في السادات . ولو تعمق في الأمر قليلا لأدرك أن أسلوب الحكم الفردي لا بد أن يؤدي إلى هذا النوع من جنون العظمة . فحين يمسك فرد واحد ، لمدة سنوات عديدة ، بسلطات هائلة في يديه ، وحين يسمع كلمات الموافقة والطاعة من كل المحيطين به ، وحين تملا صوره وأخباره وكلماته أجهزة الاعلام صباح مساء ، وحين تتحول أية رغبة له إلى واقع فعلي بمجرد أن ينطق بها ، وتتقرر المصائر والسياسات بكلمات من قلمه . . . حين يحدث ذلك كله لفرد واحد ، لا بد أن

ينتهي تكوينه النفسى الى عدم التوازن . وكم ألفت كتب عن هذه الظاهرة فى حالة عدد كبير من الحكام الفرديين . ومع ذلك فان هيكلا يقدمها الينا كما لو كانت تعبيرا عن اختلال فى شخص السادات كفرد ، ويتجاهل الجانب العام للظاهرة ، الذى يجعلها نتيجة ضرورية لانفراد انسان واحد بعدد هائل من السلطات .

ان القضية ليست قضية السادات وحده ، ولا عبد الناصر وحده ، بل قضية أسلوب الحكم الذى لا يستند الى تمثيل شعبى حقيقى . ذلك الأسلوب الذى أدركه هيكلا فى حالة السادات ، ولم يدركه قبل ذلك . والأمر المؤسف هو انه كان واعيا به ، اذ كان هو الذى نصح السادات ، بعد انتصاره فى حركة التصحيح ، بأن يحدث الناس فى خطابه الى مجلس الأمة عن قضية الديمقراطية ، لأنها هى « القضية التى تهتم الناس مباشرة فى هذه الظروف . ان الناس يريدون أن يسموه وهو يؤكد لهم ضمانات حرياتهم . لقد أفلتوا بالكاد من شبح دكتاتورية كان يمكن أن تصل فى تجاوزاتها الى حد بعيد » (١) . اذن فقد كان هيكلا يعلم ان الناس تواقعة الى الديمقراطية ، وان الجناح الذى هزم ، والذى هو الملتصق بعبد الناصر والمنفذ لسياسته ، كان دكتاتوريا ، فىل حاول فى ذلك الحين ان يدافع عن المبدأ الذى تحول الآن الى داعية له ، أم ان الديمقراطية لا تجد من ينادى بها الا حين يكون الحاكم فى موقع الضعف ، بينما تسحق بالأقدام بمجرد احساسه بالقوة ؟

ان هيكلا على العكس من ذلك ، طلع علينا - خلال فترات الشعور بالقوة - بنظرية « الديمقراطية بالموافقة » . ويعنى بها أن يكون الحاكم على وعى بمطالب الجماهير وأمانيتها ، فيحققها لها ، وعندئذ لابد أن يكون تصرفه ديمقراطيا ، لأن الجماهير ستوافق حتما عليه ، ولأنه تعبیر صادق عما تريده الجماهير . ويدافع هيكلا ، فى حديث قريب ، عن هذه الفكرة ، مؤكدا انه لم يقل بها الا بعد

(١) انظر الفصل الخامس من « خريف الضف » .

أن اتخذت القرارات الكبرى المعبرة عن موافقة الشعب ، كتأميم قناة السويس والتطبيق الاشتراكي وبناء السد العالي ، الخ . . . ولم يدرك هيكل انه حتى هذه القرارات الكبرى ينبغي أن تستند قبل اتخاذها لا بعده ، الى ارادة شعبية ، أما لو اقتصر الأمر على اتخاذها من أعلى ، فستظل معرضة للخطر . وهذه بالفعل كانت الغلطة الكبرى للعهد الناصري : فقد اتخذ بالفعل قرارات كبرى وحاسمة ، ولكنها لم تنبثق عن الشعب وانما أتت من أعلى ، وظلت معتمدة على بقاء الزعيم الذي أوجدها ، فلما اختفى ، انهارت بعده وكأنها بيت من ورق .

وهكذا كانت نظرية « الديمقراطية بالموافقة » بدعة هيكلية ينكرها أى حس ديمقراطى سليم . بل اننا لا نعدو الصواب اذا قلنا انها سلاح ذو حدين : اذ أن السادات كان يؤكد ، من جانبه : ان « ٩٩٩٪ من شعبى يؤيدنى فى زيارة القدس ، وفى الصلح والتطبيع مع اسرائيل ، ولا يعارضنى فى ذلك الا مجموعة من الأردال ! » ، أترون الى أين يمكن أن تؤدى بالشعب أفكار خطيرة كالديمقراطية بالموافقة ؟

ان الحكم الفردى ، حتى لو بلغت انجازاته عنان السماء ، يظل معرضا للوقوع على الدوام فى كوارث . وما كانت كارثة ١٩٦٧ - التى لم يعرض لها هيكل فى كتابه الا بطريقة سريعة وفى مساحة تقل بكثير عما خصصه للحديث عن مسكن السادات أو زوجات أبيه - ما كانت فى حجمها وفى فداحتها الا نتاجا للحكم الفردى . والواقع ان مشكلة هذا الأسلوب فى الحكم هى أن خطأ الفرد فيه يمتد الى أمته بأسرها ، على حين أن تأثير الخطأ فى الحكم الديمقراطى يكون أضيق نطاقا بكثير ، فضلا عن أن احتمالاته أقل ، وامكانية اصلاحه أكبر . ومن هذا النوع كان خطأ عبد الناصر فى التقدير عام ١٩٦٧ ، وخطأ السادات فى أسلوب التفاوض بعد حرب ١٩٧٣ ، وزيارته للقدس عام ١٩٧٧ . انبأ كلها قرارات فردية لحاكم فرد ، معرض كسائر البشر للخطأ ، ولكن

خطام يتحول ، بسبب طبيعة حكمه ، الى كارثة .
وتلك كلها مسائل لم يحاول هيكل ان يتطرق لها ، بل
عرض في الفصل الاخير من كتابه لاختطاء السادات كشخص ، ولم
يتناول أسلوب الحكم الذي كان السادات أحد مظاهره . ومن هنا
شاع التفاؤل في صفحات الكتاب الأخيرة ، ما دامت الشخصية
«الشريرة» قد اختفت ، وحلت محلها شخصية ذات مزاج مختلف .

والآن فلقد كنت طوال حديثي السابق أتحدث بلسان المفكر
السياسي أو الاجتماعي ، ومع ذلك فاني لا أستطيع أن أقام
اغراء العودة ، في نهاية هذا الحديث الطويل ، الى ممارسة مهنتي
الأصلية : الفلسفة ! فحين تأملت مواقف هيكل وأساليب تفكيره ،
توصلت الى مجموعة من النقاط أستطيع أن أطلق عليها اسم
« مبادئ الفلسفة الهيكلية » . فما هي هذه المبادئ ؟

المبدأ الأول : في البدء كان النسيان :

ان المتأمل لتقلبات هيكل وتغير مواقفه يستطيع ان يدرك
بوضوح ان النسيان أساس ضروري يعتمد عليه هذا النوع من
المفكرين من أجل اقناع الناس بأرائهم . ولقد ضربنا أمثلة
واضحة ، بل صارخة ، لتحولات جذرية طرأت على مواقف هيكل
من القضايا المصرية للأمة العربية في ثلاث سنوات متعاقبة :
١٩٧٠ - ١٩٧١ - ١٩٧٢ ، بحيث بدأ هذه السنوات بموقف
راديكالي متشدد ، وانتهى - بعد تدرج مرسوم بعناية - الى موقف
شديد الاعتدال ، وانعكس اتجاه تأييده المعلن ، من الاتحاد
السوفيتي الى الولايات المتحدة ، واختلف تصوره للحرب
المنظرة ، الخ . . . مثل هذه التحولات الجذرية لا يمكن أن يجرؤ
أحد على تقديمها الى الناس في سنوات متعاقبة كهذه الا اذا كان
واقفا من أن الناس سرعان ما ينسون ، وانك اذا كررت موقفك
الجديد والحجت عليه بما فيه الكفاية ، فلن يعود في ذهنهم سواء ،
ولن يحاسبك أحد على ما قلت من قبل .

انها عقلية تحتقر ذكاء الجباهير وتفترض انها تعيش ،
وتفكر ، يوما بيوم ، وتصور ان كل ما يحتاج اليه السياسى هو
أن يكرر الاكذوبة لكى تصبح حقيقة . ولو تصور أحد أن الكاتب
نفسه هو الذى ينسب مواقفه السابقة ، وليس الجمهور ، لكان فى
ذلك مخطئا أشد الخطأ . فمثل هؤلاء الكتاب ، ومعهم الحكام
الذين يعملون هم لحسابهم ، يتذكرون كل شيء ، ولكنهم يؤمنون
بأنهم هم وحدهم الأذكياء ، ويسلمون تسليما كاملا بقباء الآخرين .
وفى ضوء هذا المبدأ نستطيع أن نفسر جراءة هيكسل على اتخاذ
عدد كبير من المواقف التى كانت متعارضة فيما بينها تعارضا
شديدا . اذ بدأ برفض التجربة الحزبية ، وأيد عبد الناصر بكل
قوة ولم يقل شيئا عن ممارساته القمعية ، ثم شارك فى تحطيم
أقرب أعوان عبد الناصر ، ومهد الطريق بكل ما يملك من قوة
لعهد هدم كل الأسس التى قامت عليها سياسة عبد الناصر .
وساند حياد عبد الناصر الايجابى ، وتوجهه بالتالى نحو
السوفيت ، ثم توجه السادات نحو أمريكا ، ثم عاد أخيرا
يتباكى على أيام التوازن الاستراتيجى بين السوفيت والأمريكان .
ومشى مهللا ومصفقا فى جنازة الديمقراطية فى النصف الأول من
الخمسينات ، وشارك فى تحديد وتبرير الاتجاهات الرئيسية
للحكم الفردى ، ثم بكى لوعة على الديمقراطية الضائعة فى آخر عهد
السادات . ورفع السادات فى أول عهده الى عنان السماء ، ثم
اتضح لنا أخيرا انه كان يعرف عن طفولة السادات وشبابه وكهولته
معلومات مشينة مخجلة ..

أكان فى استطاعة أى انسان ان يتقلب بين هذه المواقف لو
لم يكن يركز على مبدأ أساسى ، هو ان الانسان حيوان ناس ، وان
فقدان الذاكرة صفة مشتركة بين جميع البشر ، وان عقول الناس
تعمل يوما بيوم ، ولا تربط الماضى بالحاضر ، أو الأمس باليوم ،
وانه هو وحده الذكى ، « الفهلوى » ، الذى يستطيع أن يغير مواقفه
دون أن يتنبه لذلك أحد ؟

المبدأ الثاني : ديمقراطية « أنا وحدي » :

في حديث قريب العهد لهيكل (٢) ، يتحدث ببطولة عن موقف حازم وقفه ضد وزير طالبه بأن يعرض مقالاته على الرقابة قبل ثلاثة أيام من نشرها ، فرفض هيكل بشدة ، وأرسل اليه يقول : « اننى لا أستطيع أن أكتب وفي ضميرى ان ورائى من سوف يجرى بقلمه على ما أكتب » ٠٠٠ ثم يقول : « اننى لم أكتب بانتظام ، وتحت عنوان : بصراحة ، الا بناء على اتفاق مع الرئيس عبد الناصر الا يخضع شيء مما أكتبه للرقابة » ٠

موقف رائع ، بطولى ، اليس كذلك ؟ ومع ذلك فان دلالات هذا الموقف محزنة ومؤسفة ، والمؤلم حقا ان هيكل يتحدث عن هذا الموقف فى معرض التفاخر ، ودون أن يلمح من ورائه شيئا آخر . ان هيكل هنا يجعل نفسه فئة قائمة بذاتها ، فئة مستثناة . فجميع الكتاب الآخرين يخضعون للرقابة ، أما هو فقد اتفق مع عبد الناصر على أن يكتب بلا رقيب . وأعجب ما فى الأمر انه على وعى بالاختناق الذى يصيب الكاتب من جراء الرقابة ، ويدرك بوضوح كيف أن قلم الرقيب يشل ضمير الكاتب ، ومع ذلك فانه لم يحاول ان يعالج القضية بالنسبة الى الجميع ، أو يكتب الى المسئولين منتقدا « مبدأ » الرقابة ، وانما كتب يقول : لابد ان أنال حريتى ٠٠٠ أنا وحدي ! وتكتمل المأساة حين يصور هذا الموقف كما لو كان بطولة عظيمة ، وتنشره الصحيفة المعارضة دون أن تعلق عليه أو تستخلص دلالاته ٠٠

ولقد أثبت هيكل فى مواقف أخرى كثيرة أنه يقف بحزم ضد التصرفات الاستبدادية عندما تمسه شخصا ، أو تمس المقربين منه ، ويتمسك « بالأعفاء الشخصى » من تجاوزات الحكام ، ولكنه لا يحاول الدفاع عن « المبدأ » نفسه ، أو أن « يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » ، كما تقول النصيحة المشهورة . فحقوق الآخرين

(٢) حديث مع صلاح عيسى - الامالى ، ١٩٨٣/٦/١ .

لا أهمية لها ما دام 'حقه الخاص مكفولا ، وإذا حلت مشكلته الشخصية ، مع أجهزة قمع الحريات ، فإن كل شيء يصبح على ما يرام . . . هذا ، فى نظر هيكل ، هو الوضع الطبيعى ، أما ما يتجاوز ذلك فلا يهمه فى شيء .

هكذا تصرف هيكل فى واقعة أخرى ورد ذكرها فى مقال سابق ، هى واقعة اعتقال أجهزة عبد الناصر لزميل له فى « الأهرام » ، فقد ثار ثورة فردية ، لأن الموضوع مس كرامته وسلامة المقربين منه ، أما المبدأ العام ، مبدأ عدم جواز اعتقال البشر بلا سبب ، وبلا محاكمة ، فلم يتطرق إليه من قريب أو بعيد .

ومثل هذا ينطبق على موقفه من اعتقاله فى آخر أيام السادات : فقد تحدث عن « محنته » الشخصية ولم يذكره السجن بألوف الضحايا الذين سجنوا قبله فى « جرائم » الرأى أو العقيدة ، فلم يقل كلمة واحدة عن مساوىء الاعتقال بوجه عام ، ولم يسهم برأى واحد من أجل ضمان الحريات الشخصية للجميع على حد سواء .

وعلى العكس من ذلك ، فإن هيكل اكتسب جزءا كبيرا من مجده بفضل هذه الديمقراطية التى كان يتمتع بها وحده ، فى الوقت الذى يختنق فيه الآخرون . وكسب من آراء كان يعرضها ، طوال الوقت الذى كان فيه هو وحده المتحرر من الرقابة ، كان من الممكن تقديمها وتنفيذها وهدمها بسهولة تامة ، لو اتاحت فرصة مماثلة للكتاب المعارضين . وكسب من « نظرية » جادت بها قريحته ، أو « تبرير » من نتاج عبقريته ، كان من الممكن اثبات تفاهته بيسر لو كان الناس قادرين على المناقشة الحرة . غير أنه ظل وحده فى الميدان ، مستمتعا بانتصاره على خصم مغلول الأيدى ، وظل يغزو عقول الناس صباح كل جمعة ، دون منافس أو معترض . والحق أن أى مفكر حقيقى يستحيل أن يقبل لنفسه هذا الاحتكار الفكرى ، أو أن يخطو خطوة واحدة فى حلبة هذا

الصراع غير المتكافئ : فهو لا يرضى لنفسه بأن يعلو صوته بينما الأصوات الأخرى مكتومة ، أو بأن يتفلسف شاهرا سيفه على أفواه مكمة والسنة مربوطة . ومجرد قبول هيكل بهذا الوضع ، واصراره على أن يحقق لنفسه ، هو وحده ، مثل هذه الحقوق الديمقراطية ، يدل على انه فى صميمه بعيد كل البعد عن الديمقراطية .

أيريد القارىء مثلا آخر ، قبل أن تنتقل الى النقطة التالية ؟ ان هيكل يشير ، فى الفصل الخامس ، وفى معرض التفاخر كما هى العادة ، الى أن عبد الناصر كان يبدأ دائما بسؤاله عن رأيه فى الموضوع الذى يناقش ، لأنه كان يتكلم بغير حرج ، « وكان يشك فى أن بعض الآخرين عادة يحومون حول الموضوع حتى يتعرفوا على رأيه (رأى عبد الناصر) فيه ، ثم يسبقوه الى ما يتصورون انه يريده » .

هذه هى النتيجة المأساوية للدكتاتورية : الخوف ، النفاق ، تملق الزعيم والاستجابة لرغباته بدلا من تحقيق مصلحة المجتمع ، الامتناع عن المعارضة - وفى مقابل ذلك ، شجاعة المتكلم الأوحده ، الذى يستطيع هو وحده ان يتكلم « بغير حرج » . هل هذا أسلوب فى الحكم يمكن أن يقيم ثورة أو يبنى مستقبلا أو يكون رجالا ؟

ومع ذلك فإن الموضوع يمر على هيكل ، كما هى العادة ، دون أن يتنبه الى أن ما يعتقد انه سبب للفخر ، هو فى الحقيقة أمر مؤسف ومخجل . فهل من تحليل لعدم التنبيه الدائم هذا ؟ انه يالقطع ليس نقصا فى القدرة على الفهم والتحليل ، وانما هو ، ببساطة ، اعتياد على العيش فى جو الحكم الفردى والاستمتاع بمزاياه الشخصية ، يؤدى فى النهاية الى أن تصبح أكثر جوانب السلوك بشاعة أمورا عادية ، مألوفة ، ليس فيها أى خطأ ...

المبدأ الثالث : الوطنية بأثر رجعى :

أسهل أنواع الكفاح وأقلها تكلفة هو أن تكافح بعد فوات

الأوان ، بينما تظل متفرجا ، أو تتواطأ ، عندما تكون الأحداث ساخنة ، يمكن التأثير عليها وتغييرها الى الأفضل . فبهذا اللون من الكفاح بعد فوات الأوان ، تبدو أمام الناس وطنيا ، مع انك لم تفعل شيئا .

وفى حالة هيكل لم يقتصر الأمر على الكفاح بأثر رجعى ضد سياسات كان أناء حدوثها متفرجا ، بل انه كافح بعهد فوات الأوان ضد سياسات كان هو نفسه قد أسهم بنصيب كبير فى صنعها . ومثل هذا الكفاح ليس سهلا قليل التكلفة فحسب ، بل هو أيضا كفاح خادع ، اذا شئت ان استخدم أخف الألفاظ .

وسنضرب لهذا الأسلوب فى الكفاح ، وفى اظهار الوطنية ، بضعة أمثلة قد لا تحتاج الى شرح مفصل ، لأنها سبق أن عرضت بتوسع من قبل . فكل ما يقوله هيكل الآن عن الافتقار الى الديمقراطية وانتهاك الدستور والقوانين الاستثنائية ، الخ ... هو كفاح بأثر رجعى ، لأنه لم يكن يدعو اليه فى الوقت المناسب ، بل نادى به - فقط - بعد أن كان كل شيء قد انتهى . وكما رأينا من قبل ، فقد كان لهيكل دور هام فى تبيئة الأذهان لطرد الخبراء السوفيت والتشكيك فى قيمة أسلحتهم ، وكذلك فى الدعوة الى تحييد أمريكا . وبعد أن تحقق ما كان يدعو اليه ، ثم استخلص النظام الحاكم نتائج الطبيعية منه ، عاد هيكل فنعى على السادات تعاونه مع الأمريكان وتجاهله للسوفيت ... ومتى حدث ذلك ؟ بعد أن أصبح اصلاح الأمر مستحيلا ، وفرض الأمر الواقع الجديد نفسه على الجميع . أما فى الوقت الذى كان من الممكن فيه تدارك الأمر ، فان كتابته كانت تسير فى الاتجاه العكسى .

وبالمثل ، فان حملته الراهنة على ادارة حرب أكتوبر سياسيا ، وعدم تطويرها عسكريا ، وافشاء سر الحرب المحدودة الى الأمريكان ، كل هذه وطنية بأثر رجعى ، لأن الأحداث انتهت منذ زمن بعيد ، أما فى الوقت الذى كان يمكن فيه التأثير فى مجرى تلك الأحداث ، فقد كان هيكل يدعو بكل صراحة الى الحرب

المحدودة ، والى التفاهم مع الأمريكان .
وأخيرا ، فإن نقده للاتجاهات التسلطية أيام عبد الناصر لم يصبح مسموعا الا أيام السادات ، بعد أن أصبحت مراكز القوى فى حالة دفاع عن النفس . أما عندما كان هؤلاء الجبابرة يسممون الناس عذابا ، ويعتقلون الآلاف بلا محاكمة ، فلم نسمع له صوتا . وهكذا تأتى البطولة دائما متأخرة ، ويظل هيكل مشاركا فى الخطأ أثناء حدوثه ، ثم يستنكره بعد فوات أوانه من أجل كسب النقاط ورفع الأسهم وزيادة رصيد الوطنية على غير أساس .

كلمة أخيرة :

أكاد ، فى لحظتى هذه ، أسمع احتجاج القارىء ، وخاصة لو كان شابا ، وهو يقول : لقد هدمت كل مقدساتنا ، ولم تترك الا حطاما ، وشككت الناس فى كل شىء وكل شخص ، ولم تقدم بدىلا ايجابيا .

وردى على هؤلاء هو اننى لم أستخدم ، كما قلت مرارا ، أى شخص بعينه ، وسيكون قد أساء فهم مقصدى كل من ينصور اننى أريد أن أهدم اسطورة هيكل أو أكشف عيوب هذا الحاكم أو ذاك . فهذه نتائج يمكن أن تأتى بطريقة عرضية أو هامشية . أما الهدف الاصلى الذى كنت أسعى اليه فهو أن أحث قرائى على أن يفكروا فيما يرونه حولهم بوعى وتبصر . ولا بأس خلال ذلك ان تتزعزع مقدسات كثيرة ، فأول مراحل العقيدة الصحيحة هى تحطيم الأصنام . ولا بأس من جرعة كبيرة من النقد والتشكك فى عصر أصبحنا فيه ممنوعين من أى اعتراض أو احتجاج .

ان هدفى الحقيقى ليس هيكل ولا السادات ولا عبد الناصر ، بل هو عقولكم أنتم . فمن هذه العقول تأتى الهزيمة أو النصر . ولقد كتبت هذه الصفحات كلها فى أيام قليلة ، بعد نشر كتاب هيكل مباشرة . وكنت طوال كتابتها أعجب لحماستى التى تتدفق وكأننى أريد أن أسوى حسابا طويلا قديما ، بل ان بعض

القراء تصوروا بالفعل ان بينى وبين هيكल ثارا خاصا ، وذلك جريا على عادتنا فى تفسير كل شىء بعوامل شخصية .
وحقيقة الأمر هى أن هناك بالفعل حسبا أردت أن أسويه ، ولكن ليس مع هيكل أو أى شخص آخر بعينه ، بل مع أسلوب فى الحكم وفى التفكير وفى معاملة الانسان للانسان كنت أرفضه على الدوام .

كان يكفى ان أسير فى شوارع القاهرة كل صيف ، وأرى الفارق بين قاهرتى الجميلة التى شهدت فى طفولتى وصباى ، وقاهرة اليوم التى خربت بأكثر مما يستطيع عدو مجنون أن يفعل .
كان يكفى ان أقارن بين تعليمى فى طفولتى والقصور التى يتلقاها أطفال اليوم بأقل الأساليب أمانة وإخلاصا

كان يكفى أن أتأمل تعاسة أبناء وطنى حين يبحثون عن العلاج ، أو عن مسكن ، أو عن وسيلة اتصال
كان يكفى أن أتأمل انهيار آمالنا الوطنية والقومية ، منذ أن صعدت لتناطح أقدم امبراطوريات الأرض ، حتى هبطت الى حضيض « ازالة آثار العدوان » بعد أن أصابتنا هزيمة نكراء على يد دولة عميلة هزيلة يسكنها خليما . لا يزيد مجموعه عن سكان بلدة متوسطة فى وطنى

كان يكفى أن أرى طائرات العدو تمرح فوق سماء بغداد ، وجيشه تصول وتجول فى شوارع بيروت
كان يكفى أن أتأمل هذا كله لكى أتساءل : ما الذى حدث ؟ ولكى أجد نفسى مدفوعا بقوة عارمة الى تسوية الحساب ، لا مع هيكل بالذات ، بل مع كل القيم وأساليب الفكر والحكم التى كان يجسدها ويبررها

كان يكفى أن أتأمل هذا كله لكى أغضب ، ولكن غضبى لم يكن وليد خريف عاصف ، بل كان عمره أطول بكثير

المحتوى

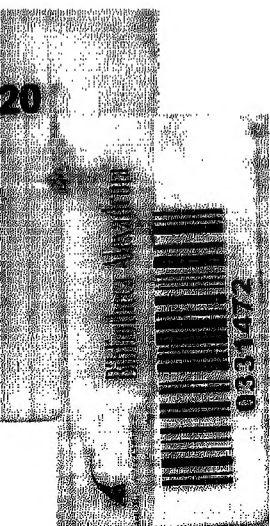
٥	مقدمة
١١	الفصل الأول : انتقام الأرشيف
٢٠	الفصل الثانى : من الذى يشتم مصر ؟
٢٩	الفصل الثالث : لعبة الأحياء والأموات
٣٩	الفصل الرابع : ظروف العائلة أم اختيار مقصود ؟
٥١	الفصل الخامس : التاريخ والحقيقة الضائعة
٦٢	الفصل السادس : ورثة مصر ، ونسى
٧٧	الفصل السابع : مع السادات على جناح واحد
٩٣	الفصل الثامن : الجذور
١١٨	الفصل التاسع : عمنا سام
١٣٧	الفصل العاشر : من الذى هدم الهيكل ؟

صدر عن دار القاهرة للنشر والتوزيع :

- اللجنة
رواية : صنع الله ابراهيم
ليلة العشق والدم
رواية : ابراهيم عبد المجيد
قدر الغرف المقبضة
رواية : عبد الحكيم قاسم
المقهى الزجاجى والأيام الصعبة
روايتان : محمد البساطى
مالك الحزين
رواية : ابراهيم أصلان
الحرب فى بر مصر
رواية : يوسف القعيد
القصة القصيرة فى السبعينيات
مختارات ودراسة : ادوار الخراط
دراسات نفسية فى الفن
د . مصطفى سويف
صباح الخير يا وطن (شهادة من بيروت المحاصرة)
رؤف مسعد
تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية
د . جلال أمين
هوامش المقرئ (حكايات من مصر)
صلاح عيسى
دراسات فى الفن والفلسفة والفكر القومي
نخبة من أساتذة الأدب والفلسفة
كم عمر الغضب ؟ هيكل وأزمة العقل العربى
د . فؤاد زكريا

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٥٧٠٩

الناشر : دار القاهرة للنشر والتوزيع ، ص٠ ب ٢٣ الجيزة
تم الطبع بمطبعة أطلس : ١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية - القاهرة



۱۵۰ قرشا